sa7eralkutub.com

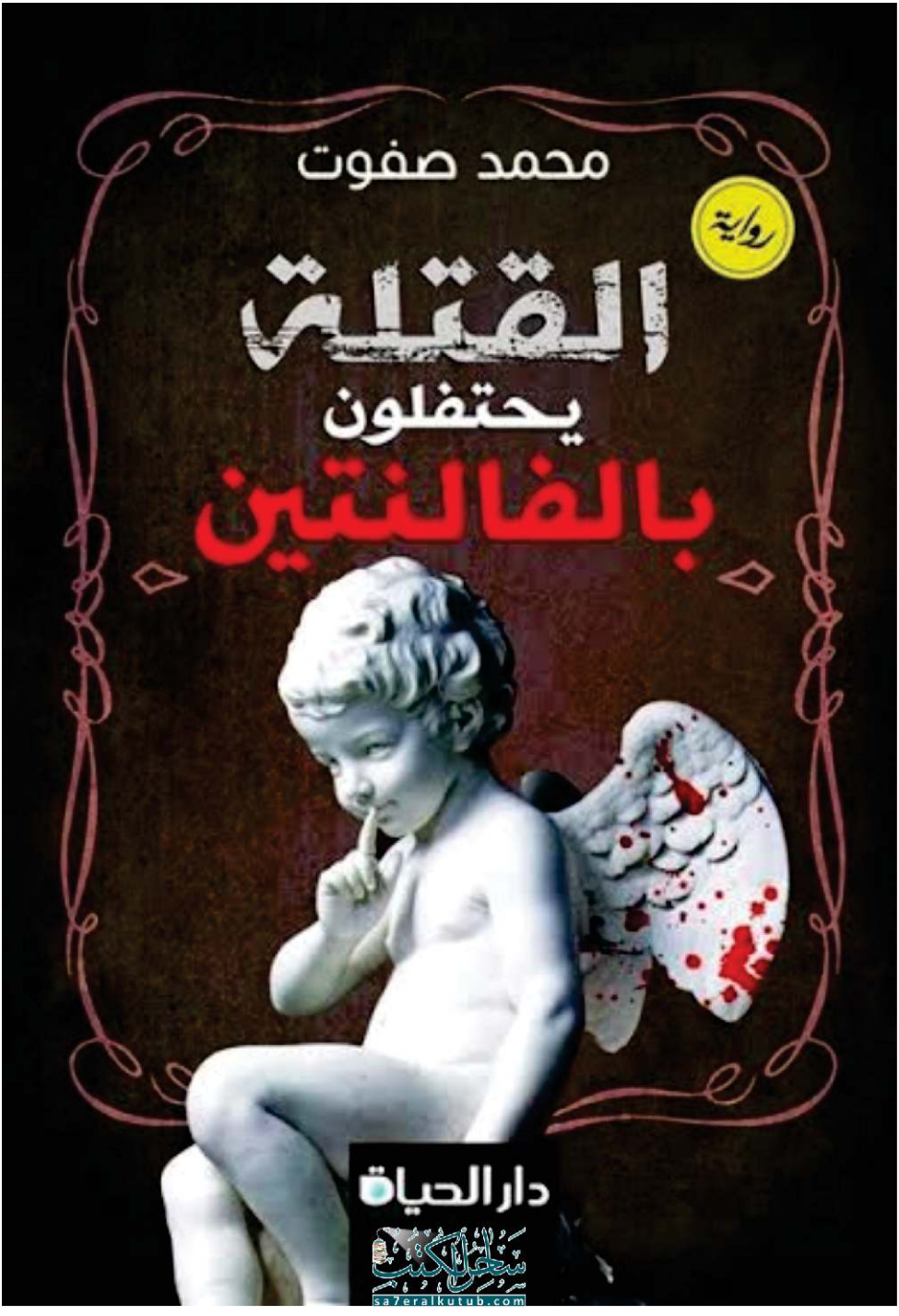

sa7eralkutub.com

رواية

"القتلة يحتفلون بالفالانتين"

محمد صفوت عبد العزيز

دار الحياة

سحر الكتب
sa7eralkutub.com

sa7eralkutub.com

المدير العام
عماد عاشور

رقم الإيداع:
2014/ 26630
الترقيم الدولي:

© جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو اليكترونية أو فى وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

محمد صفوت عبد العزيز
القتلة يحتفلون بالفالانتين
ط١- القاهرة: دار الحياة، 2014 م.
156 ص؛ 20 سم.
تدمك: 1 - 08 - 6466 - 977 - 978
١- القصص العربية
أ- العنوان
813

الكتاب: القتلة يحتفلون بالفالانتين
المؤلف: محمد صفوت عبد العزيز
الغلاف: كريم سيد
تنفيذ: هبة الله عبد الوارث

الناشر: دار الحياة للنشر والتوزيع/ ٤٢ ش على أمين (امتداد مصطفى النحاس) -مدينة نصر- القاهرة
تليفون: 279 15 240 - 278 15 240 (+202)
فاكس: 803 43 240 (+202)

E-mail: alhayahhouse@hotmail.com

sa7eralkutub.com

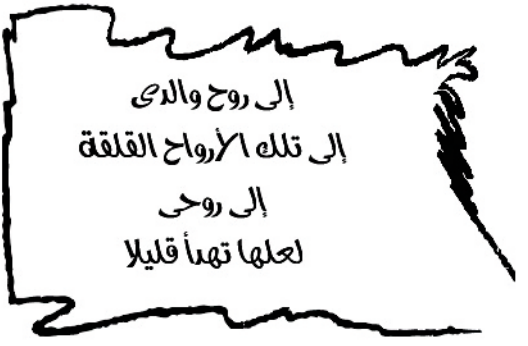

sa7eralkutub.com

القسم الأول:

"القتلة لا يتوقفون عن الركض"

"من قال لكم إنَ الصقر يهوى التحليق؟

ربما يبحث الجسد المرهق عن أرض غير مزروعة بالفخاخ"

sa7eralkutub.com

(1)

هذا الصباح استيقظ ناجى على حركة غير معتادة داخل المطبخ فى مثل هذه الأوقات، أصابه ذلك بكثير من الارتباك والقلق، لكنه ظل متقوقعًا ومحافظًا على وضعية الكمون فى مرقده كما تعود خلال أيامه الخمس الماضية التى قضاها راقدًا خلف ظهر ثلاجة أمريكية عتيقة، ورغم أنه تعود خلال هذه الأيام على وجود الفتيات والنساء داخل هذا المنزل الغريب، إلا أن هذا اليوم شهد نشاطًا زائدا عن الحد، منذ بداية النهار تضرب أقدام الفتيات أرضية فناء المطبخ الفسيح بإيقاعات صاخبة كأوز منتشى، يمرقنْ هنا وهناك بخطوات شقية لا تهدأ،يدندنْ بمقطوعات غنائية متداخلة دون نظام، أطربه بعضها وخفف من قلقه، روائح القهوة والنسكافية والعصائر الطازجة لسعت خياشيمه منذ أن استيقظ أنفه هذا الصباح، تمنى أن ينتهى كوكتيل الفوضى ذلك على خير، ربما لو نظرت واحدة أسفل قدميها لشاهدت ذلك الكائن المحنط على الجدار خلف الثلاجة، سبّب له هذا الاحتمال مزيدًا من التوتر، تمنى أن يرحل دون أن يثير مزيدًا من الإزعاج لسيدة المنزل التى استضافته دون أن تعلم، وربما دون أن تهتم أن تعلم، بأن ثمة قاتل محترف هارب من عدة أحكام بالإعدام، فضلا عن عشرات غيرها بالسجن، يحتاج إلى عمر سلحفاة معمرة حتى يقضيها، يرقد خلف ثلاجة مطبخها العتيقة، يأكل من بقايا طعامها، يسرق من علبة سجائرها، ويستخدم مرحاضها، خمسة أيام يتلصص على تفاصيل طقوس وحدتها، وعلى أسرار زبوناتها منذ أن تخطى سور منزلها العتيق هربًا من المطاردات الأمنية المستمرة التى لاحقته منذ أن نجح كالعادة فى الهرب من السجن، حتى جرفته

sa7eralkutub.com

أمامها إلى تلك المدينة الساحلية البعيدة، ليجد نفسه فجأة أمام سور منزلها الذى نبت فى وجهه فجأة كشجرة عجوز، حينها اعتقد أنه ظل يركض حتى وصل إلى حافة الكون، لم يكن أمامه حينها سوى أن يعبر سور منزلها، ومنه إلى نافذة مطبخها التى تنسى كل ليلة أن تغلقها.

لم يعرف ناجى سببا واحدًا لكل تلك الضجة التى يحويها المطبخ، من الأحاديث المبتورة ومن لملمة التفاصيل المبعثرة، أدرك أن هذا اليوم يمثل يوما غير اعتيادى بالنسبة لهؤلاء الفتيات، لكنه لم يجد تفسيرا مقنعًا لذلك، ربما لأن كلمة "الفالانتين" لا يمكنها أن تسكن فى قاموس القتلة المحترفين الذى يحفل بما هو أكثر وعورة وواقعية، وربما لأن القتلة مهمومون بقضايا ومناسبات لا تقل حماسة،

تابع ناجى نشاط الفتيات داخل المطبخ، بعضهن ظل مشغولا بتغليف الهدايا داخل حقائب أنيقة، أو بكتابة عبارات غرامية على بطاقات ورقية فخمة، رصد أيضا استغلال بعض الفتيات الفترات القليلة التى خلا فيها المطبخ لإجراء مكالمات هاتفية سريعة، لضرب موعد أو لتحديد مكان يصلح للمقابلات العاطفية.

لم يلحظ ناجى سيدة المنزل أو مدام "ملك" كما يناديها الجميع، تدلف إلى داخل المطبخ هذا الصباح سوى لمرة واحدة، تناولت خلالها كوبًا من الليمون، كما سمعها تسدى نصيحة مخلصة لفتاة بعدم الاعتماد على الرسائل الألكترونية فى هذا اليوم ؛ لأنها كما قالت معلبة وباردة كالخضروات المحفوظة.

sa7eralkutub.com

قرر أن يرحل هذا المساء، مكتفيًا بتلك البهجة الاستثنائية التى حصَّـلها فى ذلك المنزل الغريب الذى تديره هذه السيدة الوحيدة التى تفرش البنات والنساء بين يديها الحكايات وحواديت الحب دون خجل وهى تصبغ شعورهن بالحناء، أو وهى تداعب أجسادهن بالزيوت والمساحيق، فيتجردن من الحذر والخوف أمامها كما يتجردن من ملابسهن، فيحكين عن القبلات المسروقة فى الظلام، عن مقابلة خاطفة فى الشوارع الجانبية أو بإمتداد شارع البحر.

نسى ناجى فى غمرة هذه الأجواء أنه مطارد، ومهدد بالقبض عليه فى أى لحظة، وانشغل خلال أيامه فى هذا المنزل أو "مدرسة الحب " كما تطلق عليه البنات بالتخفى وراء إحدى قطع صالون بلجيكى مذهب فى صالة المنزل الفسيحة لمتابعة تفاصيل عالم مدهش، كأنها تتجلى له عبر بلورة سحرية، تفاصيل لم تسمح له ظروف عمله أن يعايشها،فظلت أجواء المنزل رغم تسليتها وبهجتها ألا محدودة، طلاسم معقدة لهذا الكائن المشفر الذى لا يعثر على صفاء روحه ولا يشعر بالونس إلا حين يقتل، ولا يمارس إنسانيته الكاملة إلا حين يلتقى برفقته الطيبة من جثث وديعة، لا تثير ضجيجًا حين تطرق بابه ليلا ليلعبوا معه الورق، أو ليحتسى معهم بلهفة الشاى والبيرة المثلجة، يستمعون إلى أسراره وشطحاته، يشكرونه قبل أن ينصرفوا على أنه وهب لهم موتًا هادئًا كانوا فى أشد الحاجة إليه فيشكرهم ؛ لأنهم وهبوه فى المقابل ونسًا يفتقده، يضمهم بعدها إلى قائمة الأصدقاء الحميمين الذين لا نستطيع بأن نعيش بدونهم، مع كل ضحية جديدة يكسب صديقا جديدا فى صحراء هذا العالم الموحش الذى ظل فيه مجرد صابع موز وحيد كما قال أبوه ذات يوم وهو يتوسط سبع برتقالات انَّجبهن قبله.

sa7eralkutub.com

قبل العصر هدأت تماما الحركة داخل المطبخ، كحلم شبقى غازله كوب من النسكافيه الممزوج باللبن تركته إحدى الفتياتً وحيدًا على منضدة المطبخ ريثما يبرد، بهدوء أزاح قدمه اليسرى إلى الخارج قليلا، تلفت بحذر قبل أن يخرج قدمه اليمنى، بدا كأوزة عتيقة وهو يكرر خطواته هذه حتى لمست أطراف أصابعه كوب النسكافيه فدبت يقظة متوهمة فى أوصاله، مع آخر رشفة كان قد وضع الكوب عاريا من النسكافيه على المنضدة، شعر بعدها ببعض الانتعاش وعاد إلى مرقده، دلف إلى الداخل ساقان أبيضان يقفان فى رشاقة داخل حذاء من الفرو على هيئة قطة،لم تسمح له زاوية الرؤية بأن يرىأكثر من هذا، استدعى بسرعة من ذاكرته قوام سيدة المنزل، أجرى فى ذهنه عملية مونتاج سريعة محاولا أن يركب هذا القوام على الساقين المنتصبين أمامه، انتهت العملية باستبعاد ذلك، فالقوام الفارع المترع الذى تلصص عليه كثيرًا لابد له أن يرتكز على قوائم عفية وممتلئة قليلا عن هذين الساقين، سمع زفرة تعجب، ترآى له حاجبان مرفوعان فى دهشة وشفاه مقلوبة بامتعاض وأطراف أصابع تمسك بكوب نسكافية فارغ، ابتعد حذاء الفرو بالساقين إلى الخارج، استقر دقائق فى وضع التجمد، بدا له كل شىء ساكنا إلا صوت محرك الثلاجة الذى يشبه صوت دبابة حربية ثقيلة،أغراه هذا الهدوء ليقوم بجولة اعتاد عليها خلال الأيام الماضية، لم يستطع أن يضبط فضوله فى معرفة ما يحدث بالخارج، يعرف طريقه تماما، بحذر خطا عدة خطوات بعيدًا عن المطبخ، طالعته فى المقدمة ساعة خشبية عتيقة ببندول من النحاس، اتجه يمينا كالعادة حيث منتصف صالحة فسيحة مستطيلة الشكل ذات مستويين، على اليمين وجد أنترية كلاسيكى تبدو عليه فخامة قديمةتتوسطه منضدة دائرية

sa7eralkutub.com

صغيرة، الحوائط مكسوة بورق حائط باهت اللون، بالونات وقلوب حمراء وأشرطة زينة لم يلاحظها قبل ذلك معلقة فى كل الأركان، سمع صوتا قادما من الجهة الأخرى، تكور سريعا وألقى بنفسه خلف قطعة من قطع الأنترية، تراقصت فى أذنيه ضحكة مجلجلة ممتلئة بالحيوية، رفع رأسه لأعلى كغواصة تستكشف ما على السطح، وجد فتاة عشرينية تنزع عنها قطع ثيابها قطعة قطعة، حتى تجلت أمامه عارية تماما كتمثال رومانى من الشمع الأبيض الرقيق يرجع تاريخه لعصر اللذة، على حين تجلس أخريات على مقاعد قريبة يتصفحن بعض المجلات، استدارت الفتاة فكشف ذلك عن أرداف ناعمة ممتلئة قليلا مصبوبة على ساقين شاهقين كعمود ى إنارة، كتم أنفاسه بصعوبة شديدة محاولا السيطرة على انفعالاته التى التهبت وتوترت، تذكر أن الساقين لحذاء الفرو، رصد الفتاة تطوى عجائنها اللذيذة فى شال أبيض شفاف ملفوف على خصرها، ثم أخذت تعقد أطراف الشال أسفل نهدها الذى تركت له حرية الحركة، فبدا مدببا مترعا بحيوية مدهشة وهو يقفز على وقع خطواتها كأرنب برى، استلقت الفتاة على كنبة عريضة فانقطع كل ذلك الجمال عنه فجأة، أخذ نفسا عميقا كأنه يحفر بداخله تفاصيل المشهد، استفاق على صوت نسائى له بحة مغلفة بالشجن، سيدة المنزل قادمة بقامة طويلة منتصبة وجسد ملفوف، وجه بلون ملائكى بدت عليه مسحة من حزن نبيل، عين واسعة بسواد صافى بها إنكسار ما، يعلوها حاجبان رقيقان كأجنحة،شفتان رقيقتان يصلحان لتقبيل مقدس منزوع الشهوة إذا رأيتهما بعين راهب أو شفتان شهيتان تكويان قلب من نظر إليهما دون أن يمتص أو يعضعض إذا رأيتهما بعين راعى نساء محترف، وضعت ما فى يدها من أشياء لم يتبينها على منضدة عريضة،

sa7eralkutub.com

غير من موقعه عبر قفزتين إلى الأمام وقفزة إلى اليسار قليلا ليتخفى وراء دولاب فضيات ؛ أتاح له رؤية أعمق، موقعه الجديد فى المستوى الأعلى للصالة أعطاه إحساس ما بالسيطرة على المشهد، على المنضدةُ أصطفَت أنواع من الكريمات والمساحيق والزيوت بجوار قوارير من العطور وأوانى بها أصباغ وحناء مختلفة الألوان، أمسكت ملك بعجينة مرنة وأخذت تمررها على كل ثنايا ومنحنيات الجسد الناعم المستلقى فى خضوع على الكنبة، تسحبها بخفة مرات عديدة دون أن تمل من فعل السحب والنتش والنتف، كان هذا أحد مشاريعها الكثيرة لقتل الوحدة، عملت لفترة كمدرسة علم نفس فى إحدى مدارس المدينة، فى لحظة تأمل اكتشفت أن ما دَرسته وما تُدرسه، ليس سوى نظريات خائبة وضعها مخبلون تصوروا أن وضع النفس البشرية تحت المجهر كفيل بفك طلاسمها المعقدة، قررت إنها لن تستمر فى خداع أجيال أخرى من البشر، بعدها استغلت حديقة منزلها فى تربية النحل، اشترت سلالات من النحل ووفرت لها خلايا خشبية، قبل أن تكتشف أن روحها لا تتحمل طنين النحل ولا عراكه المستمر مع الدبابير، فضلا عن أن الموضوع برمته مجرد سرقة لكفاح الطبقات الكادحة من النحل، استقرت أخيرا على أن تجعل من بيتها ما يشبه محل كوافير نسائى،ليس من أجل تدبير أمور عيشها فقط بل لتستمع إلى حكايات البنات والنساء فى هذه المدينة التى لا تعرف فيها أحدا، ربما لتقاوم إحساس راودها طيلة حياتها بأنها مجرد شعيرة وحيدة وسط صلعة العالم القاحلة، منذ أن ماتت أمها أثناء مولدها نتيجة حالة من حالات تسمم الحمل، سقط والدها مغشيا عليه عدة مرات قبل أن يتأكد أنه فقد محبوبته للأبد، قيل لها إنَّ والدها كاد أن يقتلها ؛ لأنه رأى أنها مجرد حشرة سامة لدغت

sa7eralkutub.com

قلبه فى مقتل، بدا الرجل بعدها كشجرة عجوز بأوراق ميتة، كان يشعر نحوها بكراهية شديدة كلما كانت تنمو أمام عينيه، وعندما كان يغسل جسدها الصغير ذات يوم اكتشف أنها تحمل الوحمة ذاتها وفى المكان ذاته كما عند أمها: عنقود عنب أحمر صغير أسفل الصدر تماما، نظر إلى وجهها وهو يجففه، شعر أنه ينظر إلى وجه أمها عندما كانت مجرد بنت جيران يسعى خلفها، اكتشف لأول مرة أنها تشبهها تماما، قبلها على رأسها واحتضنها، بعدها فقد قلبه كل رغبته فى الاستمرار.

• ظل ناجى مستمتعا بتفاصيل المشهد على قدر ما سمحت به زوايا الرؤية، كما ظل يستمع كتلميذ خائب إلى دروس الحب النظرية التى تلقيها ملك فى فصول مدرستها بعفوية شديدة ويقين كامل، وجدها تنقر بأطراف أصابعها على قلبها وتقول: الإنسان الذى يحب مجرد كائن شفاف بقلب زجاجى لا يستطيع أن يخفى داخله كراهية أو حقد، يستمع إليها تتحدث إلى الفتيات والنساء عن ذلك الإحساس المسيطر، وعن هذا التوتر والقلق اللذيذ الذى يأكل فى أعصابهن ليلا، تنصحن بأن ينهلن ما استطعن من حلاوة أوقات اللقاء والوصال، يغرفن منها غرفا ليتزودن بها فى أيام الوحشة والبعاد، سمعها تردد بعض قصائد العشق على الفتيات ليمهرن بها رسائلهن الغرامية.

ظل يتعجب من طاقة قلبها المذهلة على الإحتواء وتحمل عبء الآخر، كاد يضحك عندما اتهمت الفتاة ملك بأنها طمعت فى كوب النسكافيه الذى ارتشفه هو منذ قليل، أجابتها ملك بإنهالا تتناول أى نوع من المنبهات والمكيفات باستثناء السجائر والبيرة ؛ إذ يكفيها ما لديها من أرق.

sa7eralkutub.com

هزت الفتاة كتفها وهى تعتدل، ليرى نهدها نائما باستغراق فى أحضانها، استلقت على وجهها وهى تعض على شفتيها من ألم خفيف أو من دغدغة.

ـ مدام ملك

ـ نعم

ممكن سؤال؟

ـ اتفضلى

ـ كيف تعيشين فى كل هذا المنزل بمفردك؟

ـ لمفردى!

ـ لم أشاهد هنا غير البنات أو الستات من الزبائن

ـ صحيح..يوجد أيضا قطع الأنتريه، والسفرة، والفضيات والتابلوهات، والنجف، وأدوات المطبخ..

هزت الفتاة رأسها فى دهشة

ـ لن تفهمى..ربنا ما يكتب عليك الوحدة ولا قوانينها

قالتها وهى تتطلع لأعلى بنبرة ساخرة، أخذت تدهن الجسد النائم بطبقات من الزيوت والكريمات، فبدا يضوى بلمعان ساحر خاصة من مناطق القباب والبروزثم صنعت لها قناعا بطبقة من الطين المغربى.

sa7eralkutub.com

ضربت مقولتها عن قوانين الوحدة نافوخه بعمق، يدين لمدام ملك بهذا المصطلح الذى نحته من واقع تجربتها بكل تأكيد، لكن هل عاش أحد قوانين الوحدة كما يمكن أن يعيشها قاتل محترفيتسلم الورقة المطوية والصورة الفوتغرافية لضحيته، فيعرف أنه على وشك أن يكتسب صديقًا جديدًا يؤنسه فى وحدته؟!

حينها يتأمل الصورة بدقة، يستشف ما وراء الملامح الجامدة، يستكشف أعماق صديقه الجديد، يتفهم رغباته.. هذه صورةامرأة لها روح متمردة ثائرة نظرا لشفتها التى تقلبها بامتعاض فى وجه العدسة،هذه الحواجب الكثيفة توحى بخشونة فى روح صاحبها، تلك الصورة لعجوزمل الحياة كما يبدو من نظراته المغلفة بالسأم، تلك الابتسامة الصفراء دليل على روح معتقة بالحقد، هاته الخدود المشرئبة بالحمرة تشير إلى روح عفية لا تكل، هذه النظرة بعيدا عن العدسة دلالة روح متأملة، اللسان الأنثوى اللعوب مؤشر على روح بها هوس جنسى، رومانسية معذبة تلوح من هذه العين الناعسة، بعد أن يفك شفرة الروح يتعايش مع ضحيته، تحادثه، تمازحه، تعنفه ويعنفها، تقتسم معه سيجارته، تستمع له وهو يعزف لحنًا من ألحان وحدته على كمنجته، تدخل معه المرحاض، تتجلى على سطح المرآة وهو يصفف شعره، تسبقه وتقفز قبله فى ملابسه، تتعطر معه بعطره المفضل، تتسابق معه فى الشوارع الخالية، يقذفها بالحجارة الصغيرة إذا ما فازت وتقذفه، تعود متثاقلة مثله أخر الليل إلى حيث يقررأن يكون هذا الملجأ أو ذاك مأواه المؤقت،تغلق عليه مزلاج الباب، يترك لها نصف سريره لتشاركه أحلامه وكوابيسه، عندما تصل العلاقة إلى تلك المرحلة من الحميمية يمزق الصورة، ينثر أجزائها فى الهواء الطلق، لا حاجة لها الأن، يبدأ فى

sa7eralkutub.com

مراقبة ضحيته فى أماكنها الحية وعوالمها الخفية، يتحسس نبضها حين تتفاعل بعفوية مع الأصدقاء / الأعداء التاريخيين / شركاء البهجة / رفقاء الألم، يكتفى بدور المراقب، يرخى لها الخيط تماما، يتيح لها حرية الحركة والفعل، تقوده إلى عالمها، إلى المسرح الذى تبغى أن يكون على خشبته عرضها الأخير، تحدد ساعة الصفر وتضبط الميقاتى الزمنى، يتخفى خلف الستار، يتفاعل مع الأداء، يصفق، يبكى، يضحك، لا يظهر مطلقا على خشبة المسرح، لا يسمح مطلقا للعميل أو للوسيط الذى يكلفه بالقتل أن يتدخل فى عمله كأن يختار الوقت أو المكان أو أداة القتل، هذه هى قوانينه التى وضعها لنفسه، يترك الضحية تحدد كل ذلك، يرى أن من حقها أن تختار ما يناسبها ويتماشى مع طبيعة روحها، عليه فقط أن يدقق ويفك إشاراتها ورموزها المرسلة، فنصل السكين يناسب الروح التى بها مسحة من الفروسية، الخنق للروح الحالمة، الروح المتعجرفة تختار الحرق، طلقة الرصاص السريعة النافذة تفضلها الروح الوديعة الساكنة، الرمى من النافذة لتلك الروح المحلقة الهائمة، أما الروح الطامعة المتعطشة دوما للمزيد فتحبذ الغرق، بعد أن تنتهى الضحية من حركتها الأخيرة يخرج من خلف الستار يتأبط الريح والبرق تحت جناحيه، على خلفية من موسيقى جنائزية تعزفها بشجن بالغ تلك الأرواح الهائمة فى كل مكان، ينفخ نفخة الموت فى شمعة الروح الموقدة لتنطفىء إلى الأبد ويسود الظلام، بعدها يمارس ناجى فى أوقات فراغه ألعابه الفردية، يضرب على أوتار الكمان، يعتقد أن الكمان ألة تصلح للوحدة أو كأن يستمع إلى صدى صوته وهو يتردد كطرق على طبل أو ينظر فى المرآة ويحاول أن يحدد أوجه الشبه بينه

sa7eralkutub.com

وبين الشخص الذى أمامه، قانون الوحدة الأكبر فى نظره: (أن تتكاثر مع نفسك فتنتج ذاتك) لا يمكن أن يعرفه إلا شخص مثله.

*استفاق ناجى من تأملاته حول مصطلح قانون الوحدة على صوت فتاة أخرى تسأل ملك: ـ لماذا لا تذهبين إلى عمك فى القاهرة؟

أجابتها ملك بضيق إنها لا تعرف إن كان حيا أو ميتا، كما إن يوسف لن يخرج ويقف فى النافذة المقابلة لمنزل عمها ويداعب زجاج نافذتها بالمرآة لأنه لم يعد موجودًا

ـ يوسف؟

تجاهلت استفسار الفتاة، أضافت لو كان عمها حيا فهو يحتاج الأن إلى ممرضة، وأنها اكتفت بأن قامت بدور الشغالة فى منزله عندما مات والدها وهى فى سن السابعة وتركها عنده لتخدمه هو وزوجته المريضة وابنه الذى نفّس كل فوران مراهقته على جسدها

جلست ملك على مقعد قريب، بدا وجهها مطليا بلون حزن عميق شاهده ناجى من موقعه، قالت: إنّها تحملت كل ذلك إلى أن تخرجت من الجامعة وذهبت لتعمل فى ملجأ للأيتام كمشرفة حيث اتاحت لها هذه الوظيفة ملجأ للسكن بعيدا عن عمها الذى تزوج من فتاة صغيرة، إلى أن اقنعها مالك بيه رئيس إحدى الجمعيات التى تشرف على الملجأ بخبرة دبلوماسى سابق قادر على المفاوضة أن تتزوجه فوافقت فى لحظة من لحظات اليأس الكبرى التى تتساوى عندها كل الأشياء.

sa7eralkutub.com

هذه اللحظات تصادفنا جميعا، خطورتها تتعمق حينما تأتى عند مفترق طرق، وقتها تتعادل كل الأشياء أمام عينيك، لحظتئذ تفقد قدرتك على الاختيار، لأن كل الخيارات بائسة، تصبح كريشة اقتلعتها ريح آثمة من جناح طائر، لتجرها معها إلى العدم، اصطاد مالك بيه كما اعتادت أن تناديه لسنوات لحظة كهذه، ملك تعيش بقلب محطم وروح خاوية بعد أن هاجر يوسف ولم يعد، انتزعها فى هذه اللحظة، جرفها إلى هذه الفيلا القديمة التى اشتراها فى مكان بعيد عن عيون زوجته وأولاده فى تلك المدينة الساحلية، عندما عرفوا نزوته تلك أقاموا عليه الحجر وتركوه مريضا قعيدا لدى ملك، يأكل عقلها بحكاياته عن البلاد الغريبة وطريقته فى ممارسة الدبلوماسية الحازمة، يأكل روحها عندما يخاطبها بلغة دبلوماسية راقية :

ـ : مدام ملك ممكن تسحبى الكيلوت؟!.

عندما فقد مالك بيه قدرته على الفعل ظل يمارس استمناءً أجوفًا على جدار روحها، كان يضحك بسخرية وهو يردد: ـ العمل السياسى مجرد استمناء لكلمات جوفاء فارغة تقال بحيادية.

عندما يطلب منها بعد ذلك أن تتعرى ثانية، كانت تفعل دون أن تدرى إن كانت تفعل ذلك من أجل أن تدخل بعض البهجة على قلب هذا العجوز القعيد أومن أجل أن تحرقه وتعذبه بعجزه، قبل أربع سنوات مات مالك بيه إثر قرص فياجرا مستورد لم يتحمله عضوه الشائخ، فسقط على سرير باعته ملك بعد ذلك ؛ لأنها كانت تراه راقدا أمامها على السرير بروبه الستان المقلم الذى مات به، بل إنها رأت عمليه تحلله كلها تتم أمام عينيها يوما بيوم وبشكل واضح، حتى

sa7eralkutub.com

أنها وجدت نفسها مضطرة إلى ترك منزلها أوقاتا طويلة ؛ لأنها لم تكن تتحمل رائحة عفونة جسده البشعة، رغم أنه كان حريصا على أن يضع أغلى أنواع العطور لماركات عالمية شهيرة، ولولا أنها شهدت مراسم جنازته ودفنه فى مقابر السيدة عائشة بنفسها، لشكت فى أن زوجته وأولاده قد تركوه عندها جثة محنطة انتقاما منها، وعندما رأته قد تحول إلى هيكل عظمي بلون قوارب الصيد التى نحتتها الأمواج، أهدت السرير لأول عابر من بائعى الروبابكيا دون ثمن يذكر

طلبتْ الفتيات من ملك قصات شعر ملائمة لتلك المناسبة، كما طلبنْ نصائحها فى هذا اليوم، هل يقبلنْ الهدايا؟ أليس هو اليوم الأنسب للتصريح بمشاعر الحب الحبيسة بعد أيام من المواربة والتمنع وممارسة صناعة (التقل) الشرقى؟

من نافذة المطبخ تابعهنْ ناجى بعد ذلك، يعبرنْ حديقة المنزل كغزالات جميلة باتتْ مستعدة للتلقيح.

* * * *

sa7eralkutub.com

(2)

قبل الغروب سمع ناجى من مكمنه خلف الثلاجة صوت باب يغلق ووقع أقدام تبتعد، نظر من نافذة المطبخ بحذر وهو يتخفى كلية خلف ستارة بألوان زاهية، رأى ملك تعبر فناء حديقة منزلها، فى بلوفر شتوى ثقيل بلون السماء على بنطال من الجينز الأزرق الداكن، تركت لشال أحمر على كتفيها حرية الحركة مع نسمات الغروب الخفيفة، تتبعها من النافذة بحذر وهى تخرج من البوابة الحديدية للفيلا التى لها لون الصدأ،ثم وهى تسير باتجاه البحر عبر شارع طويلافترشه باعة الورد والعطور والدباديب والقلوب الحمراء،تمشى فى استرخاء وانسيابية كاملة وسط قوافل العشاق المتجهين إلى البحر تاركة الهواء يداعب خصلات شعرها الحر، حين تقع عيناها على تلميذة من تلميذات مدرسة الحب تسير برفقة حبيبها تغمز لها بعينيها، تبتسم تلميذاتها لها ابتسامة امتنان وعرفان بفضل دروس الحب التى منحتهن هذه الأوقات الصافية المسروقة من واقع خشن، تشعر بسعادة طاغية، تهز رأسها فى رضا ؛ لأن يدها استطاعت أن تطول وجه العالم القبيح (لتمكيج) كآبة سحنته لبعض الوقت، تواصل سيرها إلى الميناء لعل يوسف يجد فى هذا اليوم يوما مناسبا للعودة، عندما أصبحت فى منتصف الطريق إلى البحر بدت وكأنها فى عمق لوحة بديعة، بدت السماء كقبعة زرقاء من الصوف يرتديها البحر الذى سكبت فيه الشمس كوبا من عصير الفراولة الذى تتناول بعضه كل يوم عند المغرب، تماس كوكتيل الألوان هذا مع صفاء وجهها ولون بشرتها التى تميل إلى البرونزى خاصة عند الجبهة التى تتعامد على خدود حمراء، خيم ظل أسود قاتم على أبعاد اللوحة

sa7eralkutub.com

فجأة، أدرك ناجى أنه مخبر من رجاالت ألمن، يعرف أن الفخاخ منصوبة له فى المناطق المحيطة وأنهم مثل أسد جائع فقد فريسته التى بين مخالبه فأصبح يبحث ال عن فريسته الهاربة بل عن هيبته المفقودة وسط الغابة،ربما يشكون أنه على عالقة بهذه المرأة حيث فقدوا أثره بجوار بيتها،يدرك أنهم قريبون منه وأنهم ربما سيصلون إليه، وقد يقضى هذه الليلة فى زنزانته الإنفرادية، يمتلك رغم ذلك يقينا واضحا يجعله يعتقد أن هذا إن حدث، فسينجح فى أن يفلت كما يفلت منهم كل مرة ؛ إذ يمتلك سجال قياسيا حافلا فى عدد مرات الهروب من السجون المختلفة بلغت ما يقرب من عشر محاوالت ناجحة باإلضافة إلى مئات المحاولات التى بأت بالفشل والتى أضنت جميع إدرات السجون التى حل فيها نزيال مزعجا، وبالرغم من أن جسده أصبح كخريطة مهترئة من كثرة الأخاديد والندب العميقة التى نحتتها طلقات الرصاص أو عضات كلاب السجن الشرسة إلا أن روحه تبدأ فى نسج حلمها الجديد بالخالص بمجرد أن تطأ قدمه فناء السجن، يقول لزمالءه حين تستطيع أن تحلم بأنك تهرب من السجن عليك أن تستيقظ وتفعلها وإلا فلن تنجح أبدا، حين يستيقظون فى اليوم التالى، يكتشفون أنه ليس بينهم، يضربون كفا بكف، يتعجبون كيف استطاع أن يفعلها،ربما لأنهم لا يدركون أن القتلة المحترفين لا يمتلكون خيارات بديلة، حين يعود ثانية إلى السجن، ينام طويلاً، فى منامه يعزف مقطوعة زوربا اليونانى، يراها مقطوعة مفعمة بالحيوية ومناسبة تماما للركض وللباحثين عن الحرية، ربما لأن مؤلفها ذاق السجن والنفى، ثم تبث له ذاكرته مقاطع يعشقها لمشاهد سينمائية تجسد حلم اإلنسان فى الهروب من السجن وتطلعه للحرية وتحطم فكرة السجن المستحيل من ألساس، فى دقائق

www.sa7eralkutub.com

sa7eralkutub.com

يعيد مشاهدة "وداعا شاوشنك " و"الهروب الكبير" ثم تعيد عليه ذاكرته هذه الجملة التى يقولها السجّان للسجين الجديد (كلينت إستود) فى فيلم "الهروب من ألكاتراز " (إذا لم تطع قوانين المجتمع، يرسلونك إلى السجن، وإذا لم تطع قوانين السجن يرسلونك إلينا هنا)

عندما يصحو يضوى بريق فضى من عينيه، يعزف على كمنجته ـ قبل أن يحطمها أحد مأمورى السجن كألة مزعجة ـ فالس الحرية، يدركون أنه على وشك أن يفعلها من جديد، الطريقة هنا لا تهم كثيرًا، المهم الطريق، أن يجد طريقه للنور، إذ يخشى الظلام كثيرًا، اجراءات السجون المحكمة، التشديدات الأمنية المكثفة، كلها مجرد تفاصيل صغيرة لا يمكنها أن تتحمل كثيرًا طرقات متوالية لروح تبحث عن حريتها، بعدها تسقط الجدران، فيجد نفسه فى الخلاء الواسع يركض كخيول جامحة أبت أن تتنفس هواء الحظائر العطن فانطلقت فى البرارى سعيدة بالهواء المنعش الذى يلسع رئتيها دون أن تهتم كثيرًا بالنظر خلفها.

تاريخ ناجى مع السجون بدأ قبل أن تتجسد أسطورته كقاتل محترف، منذ كان يدرس الفلسفة على مقاعد الجامعة، طُلِب منه أن يعد بحثا عن تاريخ السجون وتطورها، كان يضع خطوطا بالقلم الرصاص تحت بعض عبارات فوكو عن ولادة السجون فى كتابه " عن الرقابة والعقاب"، توصل فى بحثه إلى أن البشرية اخترعت فكرة السجون والأسلاك الشائكة لتنزع الإنسان هذا الحق الأصيل فى الركض بحرية، وأن ابن الزانية الذى اخترع فكرة السجن كان بالتأكيد سيدا من سادات المتعة واللذة قبل أن يكون فيلسوفًا من فلاسفة السادية ؛ لأن الله نفسه

sa7eralkutub.com

لم يفكر فى أن يسجن أبليس عندما عصى أمره، وربما لو قضى أبليس يوما واحدا خلف القضبان حيث لون العتمة الداكن والهواء العطن لسجد فى اليوم التالى لأدم عن طيب خاطر، اندهش ناجى عندما وجد أن بعض البلدان لا تعتبر الهروب من السجن جريمة يعاقب عليها القانون معللين ذلك بأن التطلع للحرية فطرة داخل النفس البشرية، وكل ما خرج به ناجى من بحثه وقتها إدراكه بأهمية أن يجد دائما براحا كافيا ليركض لأن الإنسان مجرد حيوان يركض باستمرار، بعدها توقف ناجى عن دراسة الفلسفة رغم عشقه لها، ربما لأنها تحتاج إلى كثير من التأمل والسكون الداخلى وهو ما لا يتوافر لشخص يركض.

* * * *

لمزه الجوع بقوة، فتح باب الثلاجة وقلب بين محتوياتها فغازلته صينية من شرائح البطاطس يندس بينها دون استحياء قطع من لحم مشوى، أثارت لديه صينية البطاطس بعضا من الشجن والذكريات القديمة ؛ كانت أخر ما تذوقه من يد أمه، أشعل تحتها الموقد، بدأت الروائح اللذيذة تتسلق جدار الصينية لتتعلق بأنفه وتدغدغ شهيته، على عجل التهم نصف ما حوته، أودع ما تبقى فى مكانه بالثلاجة، وجد بداخله نزعة إلى كوب من الشاى المغلى، تطلع إلى أدوات الشاى المصطفة بعناية حوله، أشعل الموقد على براد من الإستاليس الخالص مرسوما على أحد جوانبه فتاة بالية بفستان أبيض تدور على أحد قدميها، ارتشف شايه سريعا، عاود النظر ناحية البحر حيث سارت ملك، كانت قد اختفت تماما، كل يوم مع الغروب تذهب ناحية الميناء، تنتظر أن يأتى "يوسف" فى إحدى السفن كما وعدها فى إحدى رسائله

sa7eralkutub.com

حين أبلغته بأنها تزوجت فى هذه المدينة الساحلية، وقتها قال: إنه سيأتى ذات يوم من نابولى على ظهر سفينة ليصحح خطأ رومانسيا قديما، حدد لها وقت الشفق ؛ لأنه الأكثر رومانسية، ظلت تذهب إلى الميناء لمدة عشر سنوات كاملة، تنتظر على الرصيف، تراقب حركة السفن القادمة، تنتظر ذلك الغازى الذى سيأتى من الناحية الأخرى ليحرر روحها، تتطلع إلى القادمين، تستدعى صورة يوسف المحفورة بداخلها، تحاول بحاسة داخلية تشبه خاصية الفوتشوب أن تعدل فيها بما يتماشى مع السنوات التى تمر، قد يكون يوسف الأن أكثر إمتلاءً، ربما خط الشيب خطوطا خفيفة عند مفرقيه، قد تكون عدسة نظارته الأن أكثر سمكا، قد يتقوص ظهره بعض الشىء بفعل قامته الطويلة، تتساءل بعفوية: ماذا لو وجدته يشير لها الأن بمنديل أحمر من على ظهر السفينة؟ ستندفع نحوه دون وعى، قد تزيح من فى طريقها، قد تسقط على الأرض لكنها ستقوم دون أن تهتم بأن تنفض ثيابها، عندما تكون فى مواجهته مباشرة ستكبح من حركتها، تتأمله، تتحسس وجهه بأصابعها، تتشمم رائحة يوسف حتى يرتد إليها قلبها، ستضحك ستبكى ستتعلق فى رقبته كطفلة، ربما تصفعه على خده أوتبصق فى وجهه ثم تدفن روحها فى صدره وتبكى، عند السابعة تقريبا لا يتحقق شىء من هذا، تلعنه وتسب أمه، تتمنى أن يكون بخير ثم تعود متباطئة متثاقلة، تحمل خيبة أملها بداخلها إلى حيث وحدتها، لكنها تعود فى الغروب التالى.

من نافذة المطبخ ألقى ناجى نظرة سريعة على المكان، بدا المنزل كفيلا قديمة من طابق واحد فسيح وسط فناء مربع تتخلله أحواض من الياسمين والفل وجبلاية للصبار وصناديق خشبية قديمة، اعتقد أنها خلايا لتربية النحل، وأكوام من الخردة والحدائد ملقاة دون عناية، رأى غرفة منزوية فى الفناء، خمن أنها قد تكون مخزن قديم، تأكد من

sa7eralkutub.com

صحة ظنه عندما انتقل إليه، مخزن قديم للخردة التى تناثرت فى كل مكان دون نظام والتى تعود إلى صفقة قديمة لمالك بيه عندما تحول من دبلوماسى إلى سمسار يتاجر فى كل شىء وأى شىء، لكنه ماتدون أن يتمها وتركها عبئا على ملك، قرر ناجى أن يقضى ساعاته الأخيرة فى هذا المخزن إلى أن يحين موعد رحيله عن المنزل، برغم انتشار الفوضى فى الغرفة ورطوبتها الشديدة والفئران التى ترعى فيها دون حياء إلا أنها أتاحت له بعض الخصوصية ومساحة من الرحابة أكثر قليلا من تلك خلف ظهر الثلاجة .

عندما عادت ملك من الميناء بخيبتها المعتادة وجدت العديد من سيارات الشرطة وقوات الأمن فى انتظارها، طلب منها أحدهم بجدية فتح المنزل، نظرت لهم فى دهشة وقلق، تدفقوا إلى الداخل سريعا، انتبه ناجى لصوت جلبة فى الخارج، التقطت أذنه صوتا خشنا حادا يأمر بتفتيش المنزل، تساقطت أشياء على الأرض، دبيب أقدام متعجلة، جاء صوت ملك إليه مكسورا، تأسف فى نفسه على كل الإزعاج الذى سببه لها، قفز سريعا بين أرتال الحديد والخردة، الأقدام تقترب، سمعها تحدثهم:

ـ لا يوجد إلا بعض الخردة

ـ يوجد براميل أيضا

هكذا قال لنفسه وهو يختفى خلف صفوف من البراميل المتراصة فى غير نظام، أمسك بطرف أصابعه فى أحد البراميل وظل معلقا فى الهواء وظهره للحائط، دخلت قوات الأمن إلى مخزن الخردة مهرولة، قلبوا الأشياء فى ضيق، مال أحدهم والتقط عقب سيجارة،سألها إن كانت تدخن ؟

sa7eralkutub.com

ـ نعم

ـ هذا النوع من السجائر؟....

ـ نعم

ـ آخر مرة دخلتى هنا؟

ـ لا اتذكر.

أزاحوا بعض البراميل، سقطت تباعا، مازال معلقا فى الهواء كخفاش ليلى، أصابعه تؤلمه، تماسك، لم يعد يرى شيئا، لكنه استمع صوتها:

ـ لا لم الاحظ شيئا غريبا

بدأت الأقدام تبتعد، أغلقت ملك البوابة الحديدية وهى فى قمة انزعاجها، تعجبت من إصرارهم على تفتيش منزلها للمرة الثانية، ورغم أنها فهمت من كلام الضباط أنهم يبحثون عن سفاح خطير وأن ذلك قد يشكل خطرا على حياتها إلا أنها لم تهتم، ولم تعبأ كثيرا بالكارت الذى تركه لها أحد الضباط طالبا منها أن تتصل به إذا لاحظت شيئا غير معتاد، وضعت الكارت داخل دولاب الصينى ونسيت أمره تماما بعد ذلك.

ظل ناجى فى مكانه وراء البراميل معلقا لفترة طويلة ريثما يطمئن، نزل بعدها وفرد قامته على الأرض، كان يشعر بألم رهيب فى أوتاره وبشد فى سمانة قدمه، يعرف أنهم لن يركنوا إلى الراحة قريبا،

يندهش من سذاجتهم الطاغية حين يعتقدون أنه سيسمح لهم أن يسلموا رأسه يوما ما لحبل المشنقة بينما يستسلم كخروف عاجز، سيركض بعيدا قبل أن يسجن حبل المشنقة روحه، فليس هناك من هو مسكون بعشق الحياة وتفاصيلها أكثر من قاتل محترف يعرف يد الموت الخشنة حين تهوى لتحبس النور وليسود الظلام التدريجى.

sa7eralkutub.com

(3)

قبل أن تنام ملك هذه الليلة مارست طقوس وحدتها المعتادة، شاهد ناجى بعضًا منها خلال الأيام الخمس التى قضاها فى منزلها، اغلقت " ملك " البوابة الخارجية القديمة للمنزل بصوتها المقبض المخيف كصوت الجرذان الهلعة، اطمأنت إلى أنها لم تنس صنبور الماء فى الحديقة مفتوحا وهى عادة أثيرة لديها لا تدرك نتائجها إلا كل صباح عندما تجد أن عبور الحديقة لا يحتاج إلى أقل من قارب صغير، وضعت بعض بذور الرز والعدس وفول الصويا داخل قفص طيور الحب وهى الكائنات الوحيدة التى سمحت لها بالتواجد داخل منزلها بعدما تخلصت من كثير من القطط والأرانب والكلاب التى كان يعج بها منزلها حتى سنوات قليلة خلت بعد ما وجدت أنها تموت واحدة بعد الأخرى مخلفة ندوبًا من حزن على جدار روحها البائسة، وكان أخر ذلك كلب جيرمن من سلالة نقية تماما، ربطته فى أحد أعمدة الإنارة وتركته وحيدا عند الميناء، لكن الكلب عاد وظل أسابيع طويلة يدور حول المنزل، يطاردها فى السوق وشوارع المدينة قبل أن يختفى فجأة، كما اغلقت الباب الحشبى الداخلى للمنزل، امتطت كرسى أكثر من مرة لتصل إلى المقابض النحاسية لنوافذ المنزل المرتفعة وأغلقتها جميعا إلا نافذة واحدة، هى نافذة المطبخ التى تنساها عادة والتى سوف يهبط منها ناجى بعد قليل،تحدثت إلى أوانى الطعام قطعة قطعة عندما بدأت تغسلها وترصها، ومع مصباح النيون الذى يصدر صفيرا متواصلا وهى تضيئه، عندما انتهت مرت سريعًا على جميع قنوات التلفاز دون أن تستقر ولو لثوان أمام أى منها، أغلقته وطوحت الريموت بعيدا

sa7eralkutub.com

حيث ستبحث عنه فى الصباح مع سيل من الشتائم، دارت فى جميع أنحاء المنزل دون هدف كقطة تائهة، امسكت جرائد الصباح التى تأتيها صباحا عبر فرجة البوابة الحديدية دون أن تقرأ منها حرفا واحدا كالعادة، وضعتها على كومة من الجرائد السابقة ترقد طازجة كهرم مهمل فى ركن من أركان صالتها الواسعة، دخلت بعدها إلى غرفة نومها، جلست فترة على حافة السرير، اشعلت سيجارة، فتحت دولاب ملابسها، أخذت ترتدى ثوبا وراء الأخر مستعرضة مع نفسها ذكريات ورائحة كل مرحلة من حياتها ففاحت منه روائح مختلطة فى كل أنحاء الغرفة قبل أن تمتزج هذه الروائح لتشكل عطرا خاصا هو خلاصة زهرة روحها، على أثر هذا العطر أخذت ترقص وتتمايل وتغنى كوكتيلا من أغانى ألبوم تعاستها حتى سقطت كبجعة دائخة على فراشها، فهاجمتها كوابيسها المعتادة، طرق مالك بيه باب نومها بذوقه الرفيع وحرصه المعروف على مراعاة قواعد الإتيكت، كان وجهه بلون خشب محروق، وبعد أن أطفأ سيجاره اقترب منها، ابتسم ابتسامة ثلجية، ثم همس:

ـ مدام ملك ممكن تشدى السوتيان بعد إذنك؟!

عندما رفضت نبت له نابان أزرقان، واستطالت أظافره، نهش السوتيان وغرس نابيه فى صدرها، عادة تظل ملك فى حالة بين اليقظة والغفوة حتى تستطيع أن تهرب سريعًا من كوابيسها، هربت لتأخذها حمامها المعتاد، أضافت إلى الماء الساخن مزيجا من زيت الزيتون ومنقوع الورد والياسمين لإنعاش البشرة وقليل من منقوع زهرة البليسان لتطرية بشرتها التى لاحظت أن خشونة ما قد طرأت عليها، تركت لشلال الماء أن يضرب جزر جسدها برفق لذيذ خدرها تماما،

sa7eralkutub.com

تمنت كما تتمنى كل مرة أن تموت هكذا وأن تبعث هكذا فى تابوتها ذلك، تذكرت أن آخر مرة قد حاولت فيها الانتحار ضمن سلسلة من محاولات فاشلة سبقتها كانت فى هذا البانيو عندما أخذت شريطا كاملا من حبوب مخدرة واستلقت فى ماء البانيو بعد أن أضافت للماء الساخن خليطا من أعشاب بحرية ليس لأنها مفيدة للآلام ركبتيها لكن لتظل معبقة برائحة البحر عندما توقظها الملائكة من رقدتها، عندما بدأت عيناها تغفو، شعرت بأقدام الموت قادمة تضرب بقوة فى البانيو، تطير الماء بعيدا، شعرت بظله ثقيلا على وجهها وبرائحته التى لها رائحة هواء عطن محبوس فى مقبرة منذ ألاف السنين، لكنها بدت مستسلمة وخاضعة تماما لمصيرها الذى اختارته بنفسها بعناية، وعندما كاد الموت أن ينهى إجراءاته الأخيرة استيقظت منتفضة، إذ رأت يوسف يركب سفينة حاملا حقيبة سفر صغيرة على ظهره، يتناول كوبا من شاى ساخن على ظهر السفينة، غمرتها سعادة طاغية وهى فى لحظات موتها بعودة يوسف، ندمت لأنها اختارت التوقيت الخاطىء للرحيل، حاولت أن تفك أذرع الموت التى قيدتها والتى تشبه أرجل فيل ضخم لكنه كان قد تمكن، جمعت قوتها وأزاحت الموت عن جسدها بعد أن ركلته بعنف فى خصيتيه، ثم استيقظت فزعة لترتدى ملابسها وتهرول إلى الميناء بذعر.

حتى حانت ساعة رحيله كان ناجى لا يعرف الكثير عن تلك السيدة التى استضافته فى بيتها بكل هذا الترحاب دون أن تعلم بوجوده، قبل أن يرحل ـ وبدافع من فضول القتلة الزائد عن الحد ـ قرر أن يعرف ما تفعله هذه السيدة فى مساء وحدتها، سريعًا قفز من نافذته المفضلة، مكث قليلًا خلف الثلاجة قبل أن يزحف للخارج بحذر جندى استطلاع

sa7eralkutub.com

متمكن، تطلع بهدوء فى أنحاء الصالة الواسعة دون أن يجدها، التقطت محطة رداره صوت إنسياب ماء متدفق قادما من الحمام، وجدها فرصة مناسبة،توجه ناحية غرفتها، لم يمتلك من الوقت ما يمكنه من أن يتأمل الغرفة، كـَمُن خلف ستارة النافذة، مر وقت طويل قبل أن يرى ظلها من خلال زجاج باب الغرفة، تجمد فى مكانه، دخلت إلى الغرفة تلف جسدها بروب أزرق، بدت كنورس ينفض ريشه من الماء بعد ما رقص رقصة ساحرة على سطح بحيرة، على سطح المرآة تجلت بشرتها صافية تماماكبئر جف ماؤه، شدت حزام روبها الأزرق وتركته ينزلق حتى سقط على أرض الغرفة، تأملت جسدها من خلال بث مباشر من شاشة المرآة قبالتها، بدا نهدها منزويًا نائمًا كقط صغير يشعر بالملل، تحسست سطح جسدها، مرت على أركانه وجزره المهملة، تنفض غبارًا وملحًا متكلسًا عن ثمار حديقتها، عن أعشاب جسد فقد وعيه، التفتْ ودارتْلتنظر إلى مؤخرتها عبر المرآة، بدتْ مستديرة وملتفة كفطيرة عجنتها ولفتها أصابع حلوانى ماهرثم جعلتها للعرض فقط، أخرجت علبة مكياجها، مشتْ على صفحة وجهها بأسفنجة مشبعة بكريم مرطب، وضعتْ حول عينيها كحلًا سائلًا، فطلتْ عيناها صافية كماء بحيرة لم يقربها أحد، رسمتْ حاجبيها كمركبين راسيين، خطتْ شفتيها بلون أرجوانى، مشتْ بعجينة من السكر والليمون على جسدها سريعًا، أزالتْ بعض الزعب الذى نبتْ كرأس دبابيس صغيرة هنا وهناك، عطرتْ جسدها بعطر الحب الذى تسكبه على الرسائل التى ترسلها إلى يوسف دون جدوى، ارتدتْ قميصا ناعما زهرى اللون من الستان، بدا جسدها حين انتهتْ كعربة لذة جامحة دون سائق.

sa7eralkutub.com

بإنبهار متوتر تابع ناجى العرض الرائع لتلك المرأة التائهة التى تحاول اكتشاف جغرافية جسدها من جديد، بَذل مجهودا كبيرا فى السيطرة على قلبه وعضوه المنتصبيْن، اعتقد بأن أحدهما أو كليهما سوف يخرج عن وقاره ويخترق ملابسه بفعل ضخات الدم المندفعة فى شرايينه كأمواج هائجة، تـضَاعف توترُه عندما سمعها تتحدث:

ـ يوسف... أنت وصلت؟!

ـ...هموت عليك

بهدوء أخرج رأسه ليرى ماذا يحدث على بعد مترين منه، رآها كأنها تحتضنه وتقبله بعنف، ثم وكأنه تسحبه إلى سريره اليرقد بجوارها، تحتويه ويحتويها، تتأوه بلذة، تتقلب على جوانب السرير بألق، تتخذ أوضاعا مختلفة للمضاجعة، تلهث بعنف، تتغنج

ـ أه يا يوسف

يعلو صدرها ويهبط، تتعلق بملاءة السرير، ترتعش ترتعش... حتى تراخى جسدها وهبط مؤشره فاستسلمت للنوم بإبتسامة راضية مرسومة على شفتيها...

وقف ناجى مبتلا فى قلقه وتوتره، تهتز أعماقه وترتج، لم يشأ أن يقطع عليها مضاجعتها الإفتراضية، بدا له المشهد عجائبيا ومحطما لكل قواعد العبث وألا معقول، كان يظن أنه "أينشتاين" الوحدة الذى يفهم وحده معادلاتها وقوانينها الحادة والجافة، لم يتوقع أبدا أن

sa7eralkutub.com

للوحدة هذه المعادلة الغريبة والشاذة التى وضعتها عالمة الوحدة هذه النائمة فى سرير وحدتها:

الوحدة = (واحد صحيح) يمارس كل الألعاب الجماعية وحيدا

لأن كل الأرقام قد وضعته بين قوسين معقوفين كأجرب

نظر إلى جسدها الجميل العارى، إلى وحمة عنقود العنب الأحمر المدلى أسفل صدرها، تمنى أن يأكل من حباته حتى لو كلفه ذلك أن يخرج من الجنة ذاتها، تعجب من هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله وقد تجلت قدرته فى أنه خلق كل هذه الأشياء واكتفى بأن يكون وحيدا منتشيًا بوحدته رغم قسوة معادلاتها!!

ظل وقتا طويلا فى حضرة هذه الروح الراقدة أمامه فى وداعة، روح تضوى كسمكة زاهية تحت صفحة جسدها الشفاف، يتأملها كأسد مسكين سقطت أنيابه ومخالبه فجأة فأعلن فى الغابة تصوفه وزهده.

* * * *

sa7eralkutub.com

(4)

ظهيرة اليوم التالى كان ناجى قد وصل للقاهرة فضل ألا يذهب إلى أى من أوكاره أوأماكنه القديمة، وجد نفسه فى لوكاندة عتيقة بمنطقة القلعة خالية تماما سوى من بعض النزلاء من الصعيد والأرياف، بدا ذلك مناسبا تماما ليبدأ فى تنظيم أوراقه فى الفترة القادمة، أول ما فكر فيه ناجى بعد أن دخل إلى غرفته: إلى أين يمكنه أن يركض بعد ذلك؟! لا يستطيع أن يقيم فى هذه اللوكاندة أو غيرها أكثر من يومين أو ثلاثة أيام، سنوات عمره الأربعين قضاها من الوضع راكضًا،

لا يَحُط على مكان، دائما على قلق، الريح تحته باستمرار، تحدفه فى أى مكان شاءت، يلتقط الأنفاس ويعاود التحليق من جديد.

فى المساء شعر أنه يريد أن يتنسم حريته،فى المنطقة التى يغلب عليها الطابع الأثرى الإسلامى وما تحويه من مساجد أثرية عتيقة، ومقابر وقباب، بين المقابر وجد غرزة صغيرة، تناول زجاجتين من البيرة، رفض كل العروض التى عرضت عليه أنواعا مختلفة من حشيش مضروب، جذب أحدهم فجأة كرسيًا خشبيًا بأصابع يده وجلس إلى ناجى، تعرف عليه سريعا "أحمد الكاشف"، مخرج سابق فى التليفزيون، رحب به ناجى، كان أول مرة يزوره منذ أن قتله بإيعاز من عشيقة له بعد أن خدعها ورفض أن يمنحها شقة باسمها كما وعدها، عرض عليه ناجى أن يتناول معه البيرة، رفض باعتذار رقيق لأنه لم يعتد أن يشرب فى مثل هذه الأماكن، ضحك ناجى، قال له: ـ إنَّه يشرب فى أى مكان،

سأله الكاشف عمَّن حرضه على قتله؟

sa7eralkutub.com

رفض ناجى بحزم أن يجيب عن سؤاله، معللا ذلك بأنه لم يتعود أن يكشف أسرار عملاءه وبأن ذلك غير مفيد الأن.

عاد الكاشف يسأل فى إلحاح:

ـ زوجتى؟ إحدى عشيقاتى؟ أم ولدا من أولادى؟

رد ناجى مقاطعًا: ـ معرفة ذلك لن يجر سوى شقاء غير مجد

ضحك الكاشف ثم قال: ـ على كل حال أخرجتنى نهايتى من ورطات عديدة لم أكن أعلم كيف يمكنى حلها إذا بقيت على قيد الحياة

ـ: تعلمت من خلال تجاربى السابقة مع القتل أنه يأتى فى موعده تماما حتى لو كنا نرى غير ذلك (أجاب ناجى بنبرة قاتل حنكته التجارب)

سأله الكاشف: ـ هل تخشى من الموت؟

أجاب ناجى: ـ لا أخشى إلا الظلام

استأذن الكاشف وانصرف، سار ناجى فى طريق المقابر مسرعا، شعر ببعض الخوف ؛ لأنه يخشى مثل هذه الأماكن المظلمة، وجد حلقة ذكر بجوار أحد الأضرحة القديمة التى يعج بها المكان، شيخ مسن ينشد على إيقاعات دفوف ساحرة وسط تكبيرات وتهليلات المنتشين، توقف ناجى، أخذ يراقب هؤلاء الذين ينتفضون على الإيقاعات ويهتزون مع الذكر ثم يتساقطون كفراشات خفيفة وسط الحلقة، استخفه الطرب، أخذ يتمايل، يتطوح، يلهج بالذكر، شعر بنشوة تسرى

sa7eralkutub.com

فى أوصاله وبخمرة عذبة على لسانه جعلت رأسه تطفو على سطح بحيرة ساحرة، زاد إيقاع الدفوف مع سخونة صوت المنشد، انتفض ناجى، اهتز بعنف، شعر بأن يد الله الرحيمة تهدهد على صدره، وترفع عن عنقه خطاطيف وكلابيب بهدوء دون أن يلحظ أحد ثم تغسله فى ماء البحيرة الزرقاء، عندما رفعته وجد نفسه أكثر خفةً، شعر بأن الموت لا توجد به مثل هذه العذوبة ولا حبل المشنقة يمكنه أن يُطِرب، وأن يد الله حانية، ثم سقط وسط الحلقة كفراشة.

* * * *

ترك ناجى لوكاندة القلعة بعد ثلاث ليال، استأجر شقة مفروشة فى الهرم بأحد الاسماء الكثيرة المستعارة التى يحملها والتى يحتفظ لها ببطاقات شخصية سليمة تماما حصل عليها بمعاونة بعض موظفى السجلات المدنية، يحتفظ بها فى أحد أوكاره بالإضافة إلى كثير من كروت الإتمان البنكية لحساباته المتعددة بكل العملات،

ذهب إلى أحد صالونات الحلاقة وقام بإزالة شعره وكحته تماما، أطلق شاربه وهذب لحيته، كما قام بشراء أطقم مختلفة من الملابس والإكسسورات التى تتناسب مع أذواق وأعمار مختلفة والتى يحتاجها فى رسم شخصياته التنكرية المتنوعة، اشترى ملابس شبابية بذوق متمرد، وآخرى شائخة لتغولها فى أعماق الكلاسيك لا يرتديها إلا من هم فوق سن المعاش، بعضها بأذواق صغار الموظفين والعمال، بالإضافة لمجموعة من الجلاليب البلدى على طراز الصعايدة أو الفلاحين، يقضى نهاره فى شقته إما نائما أو متابعا للأفلام القديمة التى يعشقها، يرى أنها كانت أكثر إنفتاحا وجرأة وإحتراما فى نفس الوقت،

sa7eralkutub.com

فى المساء يفكر أمام المرآة: أى شخصية يحب أن يكونها هذه الليلة؟ تاجر فاكهه من الصعيد، عامل بشركة الاسمنت، شاب مودرن، رجل أعمال، موظف بسيط، محامٍ

بعد أن يختار الشخصية يرتدى الملابس التى تناسب شخصيته، يحدد الاكسسورات المكملة للشخصية ويبدأ فى التقمص: طريقة الكلام، نبرة الصوت، القاموس اللغوى، المشية، طريقة الشراب، قائمة الأطعمة، ملامح الوجه، يعتقد أن كل وظيفة تترك أثارها وعلامتها الدالة على الملامح، يؤمن بأن موظفى الحكومة لهم ألوان باهتة أو كالحة بفعل ألوان جدران المبانى الحكومية القابضة للروح.

تعود أن يعيش حياته هكذا منذ زمن، كائنا معلقا فى الفراغ، أو كائنًا مموهًا تتعدد حيواته بتعدد شخوصه كما تتعدد اسماؤه وأماكنه، يجمع بين كل ذلك قاسم مشترك.. ناجى نفسه الذى لم تذب ملامح شخصيته أو تتماهى مع أى من هذه الشخوص، كأنه ممثل مسرحى قدير يؤدى شخصيته المرسومة على الورق بحرفية كاملة، وبعد انتهاء العرض يطرح بملل هذه الشخصية على خشبة المسرح دون أن ينسى آخر الليل أن يرتدى ملابسه ويعلق ثياب الشخصية فى دولاب غرفة الملابس، يقضى ليله متسكعا فى الشوارع أو فى البارات ثم يعود آخر الليل بصحبة يمامة من يمامات الليل، بشرط أن تقبل عدم ارتداءه العازل الطبى لأنه يعوق رؤيته تماما، بعد أن ينتهى يطلب منها أن تغادر على الفورلأنه لم يتعود أن يشاركه أحد فراشه باستثناء ضحاياه حين يزورونه فى وقت متأخر من الليل.

sa7eralkutub.com

بعد عدة أيام من الاسترخاء فى شقة الهرم فضل أن يعود لممارسة عمله، استقبل الوسطاء عودته بلهفة بالغة، اخرجوا العمليات المؤجلة التى كانت حبيسة فى أدراجهم بعد هذا الفراغ الكبير الذى تركه ناجى ولم يستطع أحد أن يملأه،خاصة أنه يمارس عمله بإحترافية كاملة وأسلوب يختلف عن هؤلاء القتلة الإعتياديين ودون ضجيج، لم يمنح لهؤلاء الوسطاء يومًا ثقته الكاملة، يتعامل معهم بكثير من الحذر والحيطة، لم يسبق لأحد منهم أن شاهده أو تقابل معه مباشرة،لايعرفون له مكانا ولا رقمًاثابتًا للهاتف، عندما يتم تكليفه بالقتل ينتقل التكليف عبرعدة وسطاء بطريقة هرمية، إلى أن يصل إلى " سلطان"، وهو قاتل متقاعد تجاوز السبعين، قضى نصفهم فى السجن، كان صاحب سطوة وجبروت، الأن يكتفى ببيع الشاى للمارة فى أحد الأسواق الصغيرة من داخل كشك خشبى متهالك ينام فيه آخر الليل، لكنه الوحيد الذى يعطيه ناجى بعض الثقة، يتصل به ناجى مرة واحدة فى الأسبوع من رقم تليفون يتغير كل مرة، يبلغه سلطان أن هناك عملية فى انتظاره، يحدد له ناجى موعدًا لتسليمه ورقة مطوية بها اسم الضحية تحوى بعض معلومات عنها مثل الاسم، أماكنه المعتادة، المهنة ومكان العمل، بالإضافة إلى صورة حديثة للشخصية ونصف أتعابه عن العملية، يحدد له وكرًا يتغير كل مرة، عندما يصل سلطان إلى الوكرلا يجد ناجى، يجد ورقة مطوية أخرى يحدد له ناجى فيها أين يمكنه أن يترك له هذه الأشياء، بعد أن ينتهى من تنفيذ التكليف يتسلم باقى أجره بنفس الطريقة.

هذه المرة قرر أن يذهب ليتناول الشاى عند سلطان، بعد أن تبادل معه بعض الكلمات كشف له عن شخصيته، نظر له سلطان بريبة، خرج من الكشك الخشبى ودار حوله وهو يتطلع إلى رأسه الحليق، وحقيبة

sa7eralkutub.com

الكمنجة التى يحملها على كتفه ومالبسه الغريبة التى لا تشبه ملابس القتلة المعتادة كما يعرفهم سلطان، ظل سلطان مأخوذا، طلب من ناجى أن يدخل معه، من نبرة الصوت بدأ يعتقد أنه ناجى، تأكد من ذلك عندما تبادل معه بعض الحكايات عن عمليات سابقة، ضحك سلطان أخير، قال:

ـ إنه لم يعرف أبدا قاتلاً محترفا تكون له هذه الهيئة التى تشبه هيئة المطربين، رد ناجى:

ـ لم اعتقد أيضا أن قاتلا محترفا ينتهى به الحال ليدور بأكواب الشاى على المارة.

سور الأزبكية
sa7eralkutub.com

ابتسم سلطان فى سخرية مريرة تليق بقاتل متقاعد، ذكر لناجى بعضا من تاريخه الكبير فى عالم القتل، قال:

ـ هذه المهنة تفترس الأعصاب وتتركنا مسوخا مشوهه ال تقوى على شىء، وعندما يشعر الوسطاء أن جبل الثلج الذى يسكن أعصابك قد تآكل سيبحثون عن غيرك وستحال للتقاعد ككلب عجوز فقد أسنانه، وربما ستكتفى ساعتها أن تبيع الشاى للعابرين، سأله ناجى عن كل هذه القطط التى يعج بها الكشك الخشبى، قال له سلطان:

ـ هى كل ما تبقى لى بعد سبعين عاما فى هذا العالم، اشترى لهم هياكل الفراخ وأنام بينهم ليلاً حتى أشعر بالونس ولا تطاردنى الكوابيس

www.sa7eralkutub.com

sa7eralkutub.com

(5)

لم يعرف ناجى من الذى يهمه أن يتخلص من الفنانة الشهيرة المعتزلة، ولم يهتم أن يعرف، يشغل نفسه بأشياء أكثر أهمية بعد أن يتسلم التكليف عادة، كانت هذه عمليته الأولى بعد أن عاد إلى عمله، عملية مثيرة تعوضه فترة الغياب والملل الماضية، بدأ يتعايش مع ضحيته التى كثيرًا ما داعبت خيالاته الشبقية فى فترة مراهقته، قرأ كثيرًا من المجلات الفنية التى وجد بها أخبارًا قليلة عن الفنانة التى كانت يومًا ما صاحبة سطوة، تطاردها العدسات والصحافة ويتمنى الجميع أن يحصل على مجرد إماءة أو نظرة منها، كل ما عرفه أن الفنانة الشهيرة تعانى من القلق والاكتئاب وأمراض إنحسار الأضواء والشهرة، وأنها ملازمة تماما لمنزلها ولا تقابل أحد، وربما لا أحد يود أن يقابلها، لكنها حريصة على أن تخرج فى الصباح الباكر للتريض فى نادى الجزيرة، عاد إلى مجلات قديمة حين كانت نجمة الغلاف، تتصدر أخبارها الصفحات الأولى، قصَّ كثيرًا من صورها وصنع منها ألبومًا متكاملًا، يعبر عن مراحل تطورها الفنى، منذ أن ظهرت منتصف الستينات إلى أن أصبحت بطلة شباك وفنانة إغراء تلحس العقول، قص جميع الأخبار والحكايات التى كانت تتحدث عنها، رتبها بعد ذلك إلى أن صنع منها ما يشبه السيرة الذاتية، أعاد بعد ذلك قراءة الشخصية، عرف أنها كانت مجرد فتاة بسيطة من الريف، وحتى نزلت القاهرة كانت بالكاد تكتب اسمها فقط، بالصدفة عملت فى صالة رقص متواضعة بالأزبكية، طموحها لم يتوقف عند ذلك، عملت فى عدة ملاهى شهيرة بعد ذلك إلى أن تعرفت على أحد المنتجين الذى سقط صريعا فى حبال فتنتها،

sa7eralkutub.com

انتج لها عدة أفلام إلى أن هجرته إلى غيره، فأصيب الرجل بأزمة نفسية حادة وأهمل فى نفسه وفى عمله، ظل يطاردها فى كل مكان إلى أن انتهى به الحال إلى إحدى المصحات العقلية، واصلت طريقها سريعًا، حققت شهرة واسعة فى السبعينات بأدوارها الساخنة والجريئة التى سلبت عقول الرجال، حتى أن أحد الوزراء استقال من الحكومة حتى يتزوجها، وتم ذلك لمدة شهر واحد فى واقعة شهيرة ومعروفة فى نهاية السبعينات، وواصلت رحلة صعودها وانكسارها إلى أن انتهى بها الحال فى شقة صغيرة فى وسط القاهرة.

شاهد ناجى جميع أفلامها، وتوقف كثيرًا أمام إمكانات جسدها، لكن الذى شغله أكثر أن هذه السيدة تمتلك طاقات روحية مذهلة أكبر بكثير من طاقات جسدها المدهش، بسبب ذلك احتار كثيرًا فى طريقة القتل التى تتلائم مع هذه الروح، فضل أن يترك ذلك لما تختاره الظروف وقتها، راقبها بعد ذلك وهى تذهب بصحبة السائق إلى نادى الجزيرة،أدرك وقتها عمق المأساة التى يعيشها البشر عندما تخبرهم الدنيا بكل حزم: بإن لا جديد لديها يمكن أن تقدمه لهم سوى أن تصدر لهم مؤخرتها، لتضرط فى وجوهم بكل رباطة جأش، الفنانة الشهيرة كانت مجرد برميل ضخم من الشحوم يزحف بالكاد وهو يرتكز على جذعين متورمين، بينما تفجَّر لهذا البرميل ردفان يشبهان جوالين من البطاطس، هذا الشىء الذى يبدو له الأن أنه أرداف، زلزل سابقًا حكومات وزعماء وشوارب، كما أن مؤخرتها التى اشتهرت ليُضرب بها المثل فى أوقات كثيرة، قد غيرت كثيرا من خطط التنمية وسياسات الإصلاح الإقتصادى لهذا البلد، قرر ناجى أن يعجل من عمليته لينقذ هذا الجسد المسكين من مزيد من التدهور،وليوقف هذا

sa7eralkutub.com

الإضمحلال الذى تعانيه روحها، فى اليوم التالى كان قد تسلل إلى داخل شقتها الأنيقة، فاجأها بغرفة نومها وفى سكون ليل وحدتها، لم تحاول أن تصرخ أو تراوغ، فقط أبدت دهشتها، وقتها فقط حدد أن تلك الروح تريد أن تحلق فى الفراغ إلى الأبد، حمل جسدها المترهل المحشو بالشحم والدهون، والذى سبب له ألما حاد فى الفقرات، تحسسه بحسرة وهو يتجه به إلى الشرفة وسط نظرات امتنان وعرفان من السيدة الخاضعة والمستسلمة تماما لمصير كانت تعرف أنه ينتظرها، فتح ناجى باب شرفتها المطلة على النيل، أفلتها بعد لحظات لتطير فى الهواء الطلق كمرتبة مكتنزة بالقطن.

عندما عاد إلى وكره شعر ناجى أنه مدين بالكثير لرفقته الطيبة، يكفى أنَّه استطاع من خلالهمأن يسبر أغوار الدنيا، يستكشف وحدة القوانيين التى تحكمها مهما كانت عبثيتها، تعلم منهم حقائق ومبادىء لم يفهمها من قراءة كتب الصالحين، منحه القتل رؤية شاملة للكون لم تمنحه له الميتافيزقا حين كان يدرس الفلسفة على مقعد الجامعة، على أيديهم تلمس الطريق إلى الله بعد أن ضرب عليه التية أياما وسنين فى ظلمات العبث والخواء والا معقول، إذ من يعرف الله أكثر من قاتل محترف، ينفذ عداله الله المطلقة على عباده، ويكون أداة القدر فى تصريف شئون الدنيا؟

من خلال القتل عرف أن من العباد من يكون خيره وخير الدنيا فى مقتله وإزاله اسمه ورسمه من هذا العالم، ومنهم من كان القتل له لطفا من الله وتعطفا، سيبدو العالم أفضل بالتأكيد لو خصمنا من تاريخه بعض الشخصيات، سيبدو أكثر قبحا لو حذفنا منه أخرين، يتخيل تاريخ

sa7eralkutub.com

البشرية لو لم تكن هناك سيدة مثل الموناليزا بإبتسامتها الصافية التى استلهم منها النساء الرقة عبر العصور فاصبحوا أكثر بهجة واحتمالا، لكن ماذا لو قتل أحدهم هتلر مثلا عندما كان لايزال شابا بريئا ينام كمسكين فى الحدائق العامة دون عصا المارشالية يحلم ويخطط كيف يمكن للعالم أن يصبح خرابة كبيرة؟!

شاهد ناجى هذه التصاريف العجيبة، يمتلك حكايات وأسرار مدهشة..... فذات مرة فتح القتل بابا لعراك أخوى دام على ميراث الأب القتيل وثروته الضخمة التى مصّها من معين الحرامً الذى لا ينضُب، وكم كانت عدالة السماء حينما حين لعنتها المباركة!، فطحن الأبناء بعضهم بعضا لتتلوى ألما وحسرة روح أبيهم فى بحر الظلمات.

كما داهممرة أحدهم بالقتل وهو فى طريقه إلى منزله وقبل أن تصدمه مؤخرة صديقه العارية الذى يفترش زوجته على فراشه بعد مكالمة هاتفية من مجهول أو فاعل خير، لحقه ناجى دون علم، فقتله، فبرحمة من الله حجب القتل عن الرجل تفاصيل هذا المشهد القاسية، فعرف كم هو محظوظ من شملته العناية بالعطف فى أخر اللحظات.

* * * *

sa7eralkutub.com

(6)

تعددت عمليات ناجى بعد عملية الفنانة الشهيرة، استطاع أن يضم آخرين إلى قائمة الأصدقاء الحميمين الذين يشاركونه وحدته، نسى خلال تلك الفترة التى جاوزت العام أو كاد أن ينسى تلك السيدة التى استضافته فى منزلها لخمسة أيام دون أن تعلم، ظروف عمله وحدها ساقته مرة أخرى إلى مدينتها الساحلية، كان أول ما فكر فيه عندما وطأت قدمه أرض المدينة أن يعبر مرة أخرى سور منزلها، كأن عالم آخر خلف هذا السور تعيشه تلك السيدة الوحيدة، عالم مثير لا يشبه عالمه.

من نافذة مطبخها التى نست أن تغلقها كالعادة تسلل مرة أخرى، استراح خلف ثلاجتها العتيقة مرة أخرى، كانت ملك تستعد للذهاب إلى الميناء،لعل يوسف يصدق ويأتى عند هذا الغروب، تابع سيرها باتجاه البحر حين سمع صوت البوابة الحديدية تغلق، صنع لنفسه فنجانا من القهوة، تناول فنجانه وأخذ يتجول داخل المنزل، دخل إلى غرفة نومها، بصعوبة وصل إلى مفتاح الإنارة، أُضيئت نجفة من الكريستال الأصلى البراق لتكشف عن غرفة نوم بدا له أنها مستوحاة من تصميم فرعونى أصيل ؛ للسرير والدواليب أعمدة منحوتة كأعمدة المعابد، للتسريحة قائمان مدببان على هيئة المسلات الفرعونية الخالدة،وقف أمام دولاب ذكره بمعبد الكرنك، قرر أن يتعرف على أبعاد هذه السيدة جيدًا، شدَّ مقبضه النحاس يفبدت له مجموعة من البدل القديمة تنوعت ما بين السفارى وبين بدل إيطالية لماركات معروفة وآخرى من الصوف الإنجليزى أو من القطن المصرى لمصانع

sa7eralkutub.com

المحلة فى أيام مجدها، ومجموعة من رابطات العنق تنوعت ما بين السادة والمقلم والمزركش، رائحة النفتالين والعته وربما رائحة الموت التى يعرفها تماما كانت تفوح من أتيليه الملابس القديم،أغلقه وفتح آخربجواره، طالعته مجموعة كبيرة من ثياب نسائية معلقة على شماعات من الاستليس، أخذ يستعرضها واحدا واحدا وهو يتخيل ملك بداخلها، يعتقدأن قطعة الملابس تعكس شخصيتنا ومزاجنا النفسى، تحمل رائحتنا وذكرياتنا، وربما تكون الشاهدة الوحيدة على أحداث فارقة فى حياتنا، وقف أمام كل قطعة بعناية، بعضها يشير إلى مرحلة انفتاح روحى كبير، يشى بذلك بهرجة الألوان، بعضها يوحى بنوع من الثورة والرفض لما فيها من قصات متمردة، مثلتْ مجموعة أخرى فترة من التدهور الروحى والنفسى إذ غلب عليها الألوانُ الداكنة والغوامق والكاكى الكئيب وصولا ربما إلى مرحلة أخيرة تعكس استسلاما وخواء روحيا رهيبا.

طالعته بعد ذلك بعض من الأكسسوارات النسائية المختلفة ومجموعة كبيرة من الإيشاربات، حتى وصلت يدُه إلى صندوق معدنى فضى اللون، أباح له فضولُه أن يفتحه، وجد مجموعة كبيرة من الصور الفوتغرافية من بينها صورة لملك بملابس الثانوى: وجهُ مستدير ينضح بحيوية الشباب مع مسحة من حزن نبيل، جسدُ فائرُ ينبىء بأنوثة فى طريقها إلى دائرة الاكتمال، اندهش من عدم وجود خيط الكدر الذى يعكر صفاءَ وجهِها كما شاهده سابقا فى صورة معلقة على الحائط مع زوجها مالك بيه، تأمل صورة أحدث نسبيا بين مدرجات الجامعة حيث اكتملتْ أبعادُ جسدها وصارتْ له شخصيته الطاغية واضحة المعالم، بيد أن الوجه حافظ على صفاءه كما أوشتْ تلك الابتسامة النقية بنوع

sa7eralkutub.com

من الرضا الروحى الكبيرعن هذه المرحلة، دقق فى ملامحها وتفاصيل مَلاحَتِها، جمال آخاذ يَعيك أن تحدد بدقة مكامنه أو أومواضع قوته، وهل يعود إلى شيء ما فى القسمات والملامح أو فى البناء الجسدى الملفوف فى عناية، أم هو كل كامل متكامل لا يمكن له أن يتجزأ، فلا تملك سوى أن تسلم بجماله، استعرض بقراءة واعية مجموعة كبيرة من الصور لفترات مختلفة من حياتها محاولا أن يرصد تاريخ ونشأة خيط الكدر الذى يعلو وجهها ؛يعتقد أن منغصات الزمن وتقلباته وما يمر بنا من مفاجأت سارة أو غير سارة تضرب فى عمق أرواحنا الشفافة تاركة علاماتها الدالة على الجسد، كما تترك ندوبا وخربشات تصل لحد التسلخ أحيانا على جدار الروح الرقيق، لاحظ بداية تكون خيط الكدر على صفحة وجهها الصافى كمجرد نقطة ضئيلة لها طرفان على جبهتها، **سبتمبر** 1999 / فرح نجوى صديقة عمرى.

فى صور تالية كانت نقطة الكدر قد استقامت على جبتهها ثم أخذت فى الامتداد تدريجيا إلى أن أصبحت سحابة غائمة تحيط بالوجه كله

... 18 **مارس** 2002، **أمام سينما راديو وسط البلد**: عيونها غائمة، تراوحت بين الصدمة وعدم التصديق وبين الرفض والاستسلام، غاب منها بريقها الامع القديم، محاطة بفرو أنيق، تضغط على شفتيها كأنها تكتم أنة أو صرخة ما تحرق أحشاءها، مالك بيه يبتسم بوقار متصنع أمام عدسة الكاميرا وهو يقبض على سبابتها، فى الخلفية بدا أفيش فيلم النعامة والطاوس واضحا بأسماء أبطاله.

sa7eralkutub.com

كما شاهد مجموعات مختلفة من الصور كان بعضها في باريس، بدت فيها ملك مستسلمة تماما وبروح أكثر خواءً

وجد ناجى صندوقا حشبيا مشغولا بالصدف له روائح، مختلطة ومتداخلة، ميز منها الأوركيد والنرجس والليمون، قرر أن يفتح الصندوق ليواصل بحثه عن ماهية هذه السيدة الغريبة التى تذهب كل غروب للميناء، استمع فجأة إلى صوت البوابة الخارجية تغلق، بسرعة بدأ فى لملمة الفوضى التى أحدثها، جمع الصور ووضعها فى صندوقها، نظر إلى الصندوق الذى لم يتمكن من فضه بحسرة وهو يعده بلقاء أخر قريب، وضع كل شيء داخل الدولاب، سمع أصوات ملك قادمة فى تثاقل تجاه الغرفة، نظر سريعا يمينا ويسارا، قفز منكمشا تحت السرير، دخلت ملك بعدها مباشرة مترنحة، طوحت حذائها بعيدا، اعتمد تماما على تحليل الأصوات القادمة له وما يتيحه له موقعه من رؤية بصرية محدودة عبر زواية ضيقة أسفل ملاءة السرير المتدلية : صرير الدولاب، رنة احتكاكات شماعات الملابس، هفهفة بنطالها الجينز وهى تنزعه من عليها، سمانتها الملفوفة، وقفتها الصامتة الشاردة وسط الغرفة لفترة، احتكاك الفرشاة بخصلات شعرها، صوت نزع فتيل علبة بيرة مثلجة ـ هكذا عرف من الرائحة التى يعرفها تماما ـ

دندنة رائعة لأغنية شهيرة لفيروز كان يحبها كثيرا:

هل جلست العصر مثلي بين جفنات العنب

والعناقيد تدلت كثريات الذهب

هل فرشت العشب ليلًا وتلحفت الفضاء

sa7eralkutub.com

تمنى بشدة أن تستكمل المقطع أو تعيده ثانية، شعر أنه خدش شيئا ما بداخله، خرخشة ما تبعها رائحة شيكولاتة

ـ أوه نسيت اشترى لب

ـ الساعة كام؟

تكتكة ولاعة، رائحة سجائر لها نكهة يعرفها ـ قد تكون "كنت "صوت باب الغرفة، خرجتْ قليلا ثم عادتْ وأغلقته، صوت رشفة اعتقد أنها لكوب من الينسون الساخن،سرى فى أوصاله دفءٌ مفاجىء بعدما أغلقت النافذة، فسره بأنه قادم من مدفأة قريبة

ـ الريموت؟..ـ : إعلان مميز لأحد المشروبات الغازية.. كليك/ ... حيث قامت قوات الاحتلال..... كليك/ أنا مشيت ورا قلبي اتجرحت..مشيت ورا عقلي اتجرحت أكتر (سمع هذه الجملة من قبل فى فيلم سينمائى شهير لكنه لا يتذكره الأن) زفرة ضيق../ كليك،جلست على السرير،حدد موقعها فى منتصف السرير تماما، مرت لحظات من صمت، سمع صوتها مبحوحا وكأنها تبكى أو تكتم رغبة فى البكاء، صوت خرخشة الأوراق / ....

" أكتب إليكِ متمنيا أن تصل الرسالة يوم الفالانتين، الغربة قدرلا بد منه يا ملك، لا استطيع أن أعيش فى مصر مرة آخرى، غسيل الصحون فى نابولى أفضل من صحفى مرمطون فى مصر، على الأقل هنا لى الحرية الكاملة فى رص الأوانى والصحون كما أشاء، أيام الجريدة لم يكن لى حرية إلا فى اختيار علامات التنصيص وعلامات الترقيم إلا علامة التعجب ؛يعتقد رئيس التحريرأنها قد تسبب متاعب، ماذا يفعل

sa7eralkutub.com

صحفى معارض طردته الصحف الحكومية ولم تتحمل نزواته الصحف الحزبية في بلد مثل مصر؟ قريبا سأعمل مراسلا لبعض وكالات الأنباء العربية هنا، لابد أن تقدرى هذا، تحملى بضعة شهور آخرى،ربما الشتاء القادم ستكونين معى، سنجلس على حافة خليجنا بوليفى حضرة الأثار الرومانية العتيقة، سنأكل **pizzanapoletana**، بصوص طماطم سان مارزانو ومزاريلا الجاموس الطازجة، نابولى بلد البيتزا الأصلى، بالأمس كنت أجلس وحيدا على حافة هذا الخليج، لا لم أكن وحيدا كنت معى وكنت....."

ـ كلام أمك الخايب ده كنت بصدقه الأول، كنت بحس إنه كلام مقدس وإنك نبى يا يوسف، اكتشفت إنك مجرد تاجر كلام خايب، أوراقك وكلامك ده هستعمله فى يوم من الأيام فى التواليت

(صمت طويل)

ـ الحنين صعب جدا يا يوسف، كوردة وحيدة فى صحراء واسعة ترفع رأسها فترى من بعيد الشجر يغطس برأسه فى البحر

(فترة من صمت)ثم بدصوتها مكتوما وكأنه قادم من قاع البحر

ـ يوسف ملعون أبوك.

ـ هتيجى بكرة....؟! ها... أنا منتظرة عند الميناء

ـ تصبح على خير.

أُضيئت الغرفة بنوروناسة برتقالى أضفى على ناجى خيالا رومانسيا فى موقعه أسفل السرير، شعر بأنها تبكى، يكاد يحس وقع

sa7eralkutub.com

دموعها على الوسادة، كتم بداخله رغبة قوية فى التبول، رغم أن مثانته على وشك الانفجار .

ذكره موقفه هذا بموقف مشابه، كان راقدا تحت سرير دائرى فخم تنسدل عليه ستائرُ حريرية بألوان زاهية فى أحد الفنادق الكبرى انتظارا لمقتل ثرى عربى، من أسفل السرير بدتْ له مائدة ضخمة عامرة بكميات ضخمة من الأطعمة والشراب، زجاجات من أفخم أنواع الشراب، جاتوهات قادمة على متن طائرة خاصة من محل "لادورى" أشهر محلات باريس

حذاءان فى منتصف الغرفة تقريبا، أحدهما نسائى فضى اللون تستقيم فيه ساقٌ شفافة كثلج، مصبوبة ومخروطة كأن الحذاء صُنع لها بتؤده، حذاءٌ أسود أنيق يركب الحذاءَ الفضى، صوت قبلة خشنة تقطع حديث الأحذية هذا، يتطاير الحذاءُ الفضى بعيدا، موسيقى راقصة تنساح من مكان ما، تبدأ الساق الشفافة فى الرقص، تلف، تدور، تنثنى، تشب على أطراف أصابعها برشاقة، تلقى بقطعة من ثيابها مع كل فاصل من فواصل الرقص، مع انتهاء الموسيقى رمت بكيلوت بيج له رائحة الشيكولاه بالقرب من موقع ناجى تحت السرير، الحذاء الأسود ينتفض، يصفق، ينتصب،ينزل حمل ثقيل على السرير الذى ينثنى وينكمش ويتمدد، جأته نفس الرغبة الملحة فى التبول التى يشعر بها الأن، طلب الرجل أن تستلقى الفتاة على وسادة وترفع عانتها لأعلى، قال لها: أنه سريع النسيان ولا يحب أن يضاجع امرأة مرتين ؛ لذا سيرسم وشما خاصا به على عانتها،بعدها قال: سنلعب لعبة مثيرة، على المائدة عشر زجاجات من الشمبانيا وهذه عشرة آلاف

sa7eralkutub.com

دولار، لتفرغى الزجاجات نقطة نقطة على قضيبى وتلحسينه، كل زجاجة تنتهى بألف دولار، ولنجعل اللعبة أكثر إثارة، إن لم تستطعى أن تكملى العشرزجاجات ستخسرى كل ما ربحتيه... لنبدأ الأن، بدأت الفتاة بكثير من الحيوية هكذا بدت له حركتها من أسفل، ثم سمع صوت لاهاثها وأنفاسها المتقطعة، الرجل يضرب على مؤخرتها كلما توقفت محمسا، انتهتبالكاد من أول زجاجتين، رمت بجسدها على السرير وهى تلهث، يطالبها الرجل بالاستمرار من أجل العشرة ألاف دولار، شعرناجى بأن عليه أن ينهى هذه اللعبة الأن ليس تعاطفا مع الفتاة المسكينة،بل لينهى هذه الغطرسة للأبد، تسحب من تحت السرير، شب كرمح، رأى قضيب الرجل منتصبا معروقا بالوسكى والفتاة متكورة على نفسها غارقة فى عرقها، وجه طعنته قوية سريعة، فانتصبت السكين محاذية تماما للقضيب المعروق بالوسكى، قبل أن يغادر طلب ناجى من الفتاة أن تأخذ فقط ألفى دولار لأنها لم تلحس سوى زجاجتين مخالفا بذلك قواعد اللعبة .

*استفاق ناجى على تقلب ملك المزعج وحركتها الكثيرة على السرير من فوقه، أحس بها تتناول شيئا ما من على الكوميدون، اعتقد أنها حبة مهدئة، تأكد بعدما سمع صوت الماء ينساب إلى جوفها، رأى سمانتها عبر ضوء الغرفة الخافت فى منتصف الغرفة تقريبا، سمع صوت الدولاب وتكتكة الشماعات المعدنية، ترآى له ظلها على أرضية الحجرة فى قطعة ملابس بنفسجية اللون، انبعث صوت موسيقى عذبة، يتمايل ظلها وهى تدندن مع الموسيقى بشجن بالغ، صوت الدولاب مرة آخرى، ذيل قطعة ملابس بلون وردى يتراقص، تغنى، تضحك، تبكى، بنطال جينز، فستان سماوى اللون، تعددت

sa7eralkutub.com

أمامه الألوان، يزداد إيقاعها مع إيقاع الموسيقى الذى أصبح لاهثا، تضحك بهسترية، تصرخ:

ـ ملعون أبوك يا يوسف، ملعون أبوك أنت ومالك بيه وعمى، كلكم ولاد وسخة

شعر بأن روحها أسيرة وحبيسة فى قارورة عميقة ترتج داخلها، هدأ إيقاعها عندما وضع نور الصباح أول أقدامه على أرضية الغرفة التى افترشتها، استندت بظهرها على السرير فى مقابلته تماما، أشعلت سيجارة ثم بدا عليها أنها غابت تماما، زادت معاناة ناجى من كتمان رغبته فى التبول، تسحب بخفة من الناحية الآخرى من السرير، زحف على بطنه بهدوء خارجا من الغرفة، إلى حيث المرحاض.

* * * *

sa7eralkutub.com

(7)

فى الصباح كان ناجى يرقد خلف البراميل المتراصة دون عناية فى المخزن، يفكر فى أمر هذه السيدة التى تنتظر على رصيف الميناء طيلة عشر سنوات دون أن يصيبها الملل، وتداوم كل أسبوع على كتابة رسالة تطيرها إلى نابولى من غير جدوى، كأنها طقوس مقدسة تواظب عليها فى مواقيتها دون أن تنتظر أجرًا على ذلك، يكفيها أن تنال مزيدًا من الانتظار والخيبة جزاء إخلاصها فى العبادة، تفتح بعد ذلك صدرها واسعًا لـتُلقى فيه البنات حكايتهن الغرامية، فتمسح على القلوب الكسيرة، تجفف دموع اللوعة والحنين المكبوت، فتخرج الفتيات من حضرتها دون أن يقدمن لها العطايا ؛ لأن هذه السيدة ليس عندها صندوق للنزور، تمتلك فقط صندوقًا ترقد فيه رسائل قديمة، تعيد قراءتها كل ليلة، حتى تستطيع فى اليوم التالى أن تذهب للميناء، لا يدرك ناجى لماذا جاء إلى منزل هذه السيدة ثانية؟.

يدرك أن هذه المرة لن يكون مرغما على عبور سورها، سيتسلقه بكامل إرادته دون أن يطارده أحد، على كل حال جاء فى موعده تماما.

من كوة صغيرة بقضبان حديدية تطل مباشرة على الحديقة، تابعها تطعم طيور الحب من وعاء ملئ بالشوفان والأرز بإنهماك واستغراق كاملين، كأن الكون قد خلا عليها وعلى زوج عصافيرها، ضربات متتالية موجعة على صدربوابة منزلها الحديدية أفزعتها، فسقط الوعاء، تأهب ناجى حين اعتقد أنها مقدمة لمطاردات أمنية أخرى، بحذر فتحت بعد تردد، انشقت البوابة عن ثلاثة أشخاص بجلاليب بيضاء

sa7eralkutub.com

قصيرة ولحى طويلة أكلت معظم ملامح وجوههم، اندفعوا إلى الداخل وهم ينظرون لها نظرات فاحصة بها مزيج من السخرية والاستحقار، بعد فترة صمت قصيرة، تحدث أحدهم بلهجة خطابية وبصوت مجسم خشن كأنه قادم من قاع بئر عميق، حاولت ملك أن تستجمع شجاعتها لتستوعب ما يحدث، كان الخطيب يواصل خطبته التى بدأها بالحديث عن المفسدين فى الأرض وعقابهم الذى يستحقونه، ثم وجه لملك اتهاما صريحا بأنها تنشر الفجور والخلاعة فى المجتمع وأنها سبب من أسباب الرذيلة واللهو، كما أنها تُعَصى السيدات المحصنات على أزواجهنْ، وبسببها تمردتْ الفتيات البكر الغافلات على آبائهنْ، عندما نزل الرجل من على منبره، أشار بإن

" الشيخ أبو العيون" أرسلهم ليخبروها بأن عليها أن تغادر المدينة خلال أسبوع، وإن الشيخ على استعداد أن يشترى منها منزلها ليبنى عليه مسجدا.

نظر الرجل إلى ملك بعين مفاوض ماكر ألقى بأحد أوراقه لضحيته فى انتظار رد الفعل ليبدأ مساومة أو مقايضة ما، ظلت صامتة، تحاول أن تكبح قلبها الذى يرتطم بأضلاعها كقلب عصفورانهارعشه فجأة ليجد نفسه أمام كتيبة من قطط شرسة، تماسكتْ لبعض الشىء، فلم تقو سوى على إبتسامة بدت ساخرة، لم يفهمها السيد الخطيب أو أحد من أتباعه، فهز رأسه مستفهما، انطلقت هذه المرة بجرأة ويأس العصفور الذى يدافع عن كيانه، معلنة إنها لن تترك منزلها ولا هذه المدينة و لن ترد على اتهامات الشيخ أبو العيون السخيفة الذى وصفته بزير نساء لم يشبع ولن يرتوى، عددتْ أمامهم زيجاته الكثيرة واسماء

sa7eralkutub.com

نسوته الاتى كن يأتين إليها صباح ليلة الزفاف كدجاجات مستسلمة، تجهزهن وتنتف الشعر من أجسادهن لتجعلهن صالحات للذبح فى المساء على فراش الشيخ.

تدرك أنها على أعتاب معركة كبرى غير متكافئة لا بديل أمامها سوى أن تخوضها كجندى يائس، تدرك أن أحد أسباب غضبة الشيخ وثورته فتاة صغيرة جأتْ إلى مدرسة الحبِ باكيةً بعد تعرضها لضغوط هائلة من أسرتها الفقيرة التى لا تستطيع أن تقف أمام رغبات الشيخ الذى أراد أن يضمها إلى حبات مسبحته الناعمة، طلبت منها ملك أن تصمد وألاّ تبيع جسدها لأحد، ظلت تساند الفتاة وتقوى ظهرها حتى أفسدتً المتعة على الشيخ .

صعد الخطيب المنبر ثانية، صاح بلهجة تحذيرية:

ـ إذا لم تنفذى ما أمر به الشيخ خلال أسبوع، فسوف يَـفـْضَحُك الشيخ من على منبر الجامع الكبير فى المدينة أمام جميع الأهالى، سيستغل شعبيته الكبيرة فى تحريض مريديه وأتباعه ومحبيه، ساعتها عليك أن تواجهى هذا الطوفان الذى سيجتاح منزلك أو سيحرقه بمن فيه.

اكتفى ناجى بالمتابعة الممزوجة بالشفقة، خاصة بعدما بدأ الخطيب فى المساومة والمقايضة، قدم عرضا مغريا من الشيخ يضمن لملك أن تجمع بين الرضا فى الدنيا وحسن ثواب الآخرة: أن تتنقب وتترك هذه المهنة وتقوم بإعطاء دروس دينية للنساء وللفتيات فى الجامع الكبير، مستغلة قدرتها على الإقناع التى وهبها الله لها فى طاعة

sa7eralkutub.com

الله، وتحل زوجة مكرمة فى أحد منازل الشيخ الذى سوف يقوم بتطليق أخت من زوجاته من أجل ذلك، ابتسم الخطيب ابتسامة لزجة وهو ينظر إلى رفيقيه عن يمينه وعن شماله وهما ينظران إلى ملك كفريسة داخت من المطاردة وبدت أكثر استعدادا أن تذهب بنفسها إلى الشباك لتريح أعصابها المرهقة، ضغط ناجى على شفتيه من التوتر الذى انتابه، فاجأت ملك الجميع بثورة عارمة وهى تلقى الشتائم المتتالية وتقذف بما تجده فى فناء الحديقة من حصى أو طوب على رجال الشيخ الذين فروا إلى الخارج خائبين بعد فشل صفقتهم، أغلقت البوابة الحديدية، وراحت فى بكاء مستمر، لا يمكنها أبدا أن تتصور نفسها جالسة على قمة عضو مولانا يستمتع بها حتى يستكين قضيبه فى لباسه، بعد أن جعل منها مسخا لا يصلح سوى للمعاشرة الليلية.

وجد ناجى نفسه مرة أخرى منغمسا فى وقائع مدرسة الحب التى لا يرضيه أبدا أن تغلق أبوابها، عدَّ ذلك هزيمة جديدة للروح، كما رفض رفضًا قاطعًا أن تصبح صاحبة المدرسة مجرد قطعة من ملبن طرى يفركها الشيخ أبو العيون تحته ليلا.

* * * *

sa7eralkutub.com

(8)

خرجت ملك من بيتها صبيحة يوم الجمعة، متوجهه إلى منزل الشيخ أبو العيون بعد أن ظلت لثلاث أيام كاملة دون نوم، تفترسها الكوابيس المزعجة حين ترى الشيخ أبو العيون يعتليها ويجلدها بسوطه كفرسة مارقة يحاول أن يهديها إلى صراطه المستقيم،فتوصلت إلى قناعة تامة بضرورة قتل الشيخ، أعدت لذلك سكينًا إيطاليًا كان مالك بيه يستخدمه فى تقطيع اللحم من أجل حفلات الشواء التى كان يقيمها مساء كل خميس لنفسه، وضعت السكين فى جراب خاص به، أخفته تحت طيات بنطالها الجينز، أعدت كمينها بالقرب من المنزل فى انتظار نزول الشيخ ليركب سيارته متوجهًا إلى المسجد، كانت تنتفض من الخوف، أخذت عدة قرارت بالعودة، إلا أنها كانت تثبت فى مكانها عندما تتذكر البدائل الأخرى المرعبة، لكنها لم تكن تمتلك يقينًا كاملا بإنها عندما ترى الشيخ ستتمكن فعلًا من قتله!.

كان الخبر مفاجئا وصادما للجميع، استقبله أهالى المدينة فى البداية كإشاعة سخيفة تسربت إليهم صبيحة يوم الجمعة، ثم بدءوا يعتقدون بصحته عندما لاحظوا الانتشار الكثيف لسيارات الأمن فى شوارع المدينة، تأكدوا عندما لم يصعد الشيخ إلى منبر الجامع الكبير كعادته منذ عشرين سنة، بعد الصلاة تحلق أتباعه ومحبوه حول منزله الكبيربطوابقه الخمسة، يخصص الشيخ طابقا لكل زوجة من زوجاته وأولادها، جعل الطابق الأخير للخلوة والعبادة بعيدا عن متع الدنيا الزائلة.

sa7eralkutub.com

مارس المحققون ورجال الأمن عملهم بصعوبة بالغة نتيجة الزحام وحالة الهستريا التى انتابت أتباع الشيخ، لم يجدوا دليلا واحد أو خيطا يقودهم إلى الجانى، مال بعضهم إلى فرض أن يكون الشيخ قد انتحروهو ما دعى جهات سيادية إلى التدخل، حيث طلبت كتمان ذلك حاليا ؛ لأنه قد يزيد حالة الهيجان عند أتباع الشيخ الذين لن يصدقوا ذلك حتى وأن شاهدوه بأعينهم، فى عصر هذا اليوم صرحت النيابة بدفن الجثة، كما سمحت لزوجاته أن يحتفظن بحبات مسبحة الشيخ التى وجدت مبعثرة على الأرض.

هرولت ملك لمنزلها فى حالة من عدم التصديق الذى أفسد عليها سعادتها، أعادت السكين إلى مكانه، كانت من أوائل الذين عرفوا بمقتل الشيخ عندما سمعت نحيب وصرخات زوجاته وتلك الحركة الزائدة أمام بيته ثم وصول سيارات الشرطة،عند العصر استمعت إلى نعيه عبر مكبرات الصوت، لم تصدق إلا عندما سارت فى الجنازة خلف نعش الشيخ أبو العيون الذى صمم مريدوه أن يطوفوا به كل أنحاء المدينة متسببين فى مزيد من الإزعاج والضيق للأجهزة الأمنية التى كثيرا ما أسدى لها الشيخ الكثير من الخدمات، كتمت ملك فرحتها وربما شماتتها بداخلها، ثم انطلقت بعد ذلك مطمئنة إلى الميناء.

فضل ناجى أن يؤجل لبعض الوقت عمليته التى جاء خصيصًا إلى المدينة لتنفيذها، خاصة أنه كان مشغولًا طيلة الفترة السابقة بما هو أهم من ذلك، حيث أقنع الشيخ أبو العيون بأن عليه فى هذه الأوقات الأخيرة من حياته أن يزهد ويتحلل من متع الدنيا ويترقى إلى حيث هذه الخية التى نصبها له أعلى سريره، نجح فى أن يفعل هذا فى الوقت المناسب

sa7eralkutub.com

وقبل أن تصل ملك إلى الشيخ، خاصة أنه شاهد تمرينات القتل الساذجة التى ظلت تؤديها لساعات طويلة أمام المرآة، فى محاولة منها للسيطرة على أعصابها وعلى السكين، بدت وقتها كبجعة تصارع تنينًا حاول أن يسلبها حقها فى الرقص، سقطت السكين من يديها مرات عديدة، فتمسكها بعزيمة واهنة، تبكى أحيانا، تبصق فى وجه حياتها وتستمر فى تمرينها، وكل ما كان يخشاه ناجى لحظتها أن تسدد هذه السكين إلى روحها.

بعدما انتهى ناجى من روح الشيخ " أبو العيون " الخشنة فضل أن يبقى قليلًا ضيفًا على ملك بعد أن أسدى لها ـ دون أن تعلم ـ أكبر خدمة فى حياتها.

مساء نفس اليوم كان تحت سريرها، حين دخلت إلى غرفة نومها قادمة من الميناء بعد أن اطمأنت تماما أن يوسف لم يعد كالعادة، شم رائحة نرجس تفوح فى الغرفة، كانت ملك قد ابتاعتها من بائعة ورد لها كشك صغير قبالة الميناء، استطاع من مطرحه أن يشاهد حتى فخذيها وهى تخلع جونلة رمادية اللون، ارتدت ملك بعدها بيجاما شتوية فوقها روب من الصوف، جلست على كرسى فوتيه فى جانب الغرفة تحت النافذة تماما، لم يستطع ناجى من هذه الزاوية سوى أن يرى أطراف قدميها فقط إلا أنه سمعها تدندن بصوت مشروخ:

(لو كنت فى يوم أنساك إية افتكر تانى)؟

إية افتكر تانى؟!

sa7eralkutub.com

بالتأكيد لم يكن فى حياة ملك ما يستحق أن تتذكره، ربما كل ما كانت تتمناه وقتها أن تنسى ما بقى عالقا بذاكرتها فعلا سوى شىء واحد... هذه اللحظات المبهجة من تاريخها الشخصى، كثيرا ما تمنت أن يمتلك الإنسان (أوبشينز) أجهزة الحاسب، أن يمتلك زر (الدليت) يضغط عليه فيمحو صفحات كئيبة أو أيام بلون الخروب لتبقى الليالى الوردى فقط، لوتبقى ذكريات يوسف ساطعة!، لو تدفن أيام عمها ومالك بيه فى جوف الأرض كنفايات نتنة!

لماذا لم تخترع الإنسانية ما يُمَكِن من أن يتحسس الإنسان لحظاته السعيدة بيديه؟، يتحسسها بلحمها ودمها وليس كصور الفوتغرافيا المحنطة؟! الأجمل أن يتم تحميل هذه الأوقات على " سى دى"، ليس ليشاهدها عند الحاجة بل ليعيشها ثانية، ولأنها لا تمتلك كل هذا فقد لجأت إلى صندوقها الخشبى، صندوق الرسائل، الذى ينتهز ناجى فرصة مناسبة ليفضه وينتهك أسراره، قلبت فى محتوياته حتى عثرت على رسالة كانت تبحث عنها :

ـ (سامحينى يا ملك، لن استطيع أن أعود الأن على ظهر سفينة كما وعدتك، ربما لن استطيع أن أعود ثانية، عندما يسحق الإنسان يهون فى عينيه كل شىء، لن اعود إلى مصر مهزوما مسحوقا لأظفر بحب امراءة متزوجة لها قلب محطم، أعرف أنك كنت ترعين أمى وتحرصين على زيارتها حتى ماتت، لن انسى لك ذلك، كما لن أنسى أبدا أوقاتا سعيدة قضيناها)

يوسف / نابولى / مارس2005

sa7eralkutub.com

ـ مش هسامحك

لأول مرة يشعر ناجى أنه يشارك (آخر) قلقه وهواجسه، لم يعرف أبدا هذا (الآخر) من قبل، أحس بأن تلك المرأة التى لم يتبادل معها ولا كلمة واحدة هى أقرب إنسان له الأن، ربما لأن روحها كانت تشبه روحه، روح صافية مُقرَحة بدمامل الوحدة، ربما لأن علاقاته النسائية كان يمارسها كراعٍ متجول، علاقات عابرة لا تترك أثرًا فى صحراء قلبه الشاسعة، لا يخرج منها سوى بسد جوع حيوانه، ثم يمرق سريعا، وجدها تفترش أرضية الغرفة فى مواجهته تماما، يحس بأنفاسها ملتهبة على وجهه، بجفاف حلقها وبرائحة كالصمغ تفوح من فمها، كانت تكتب:

(اكتب لك يا يوسف وكما تعودت أن اكتب طيلة هذه السنوات كل أسبوع، أعرف أنه لن يصلنى ردك كالعادة، لكنى سأكتب، لأن الإنسان حيوان يكتب الرسائل الغرامية، كما أنه حيوان عاشق كما علمتنى، لا اعرف أحد فى هذ العالم سواك، سأظل انتظر ربما تعود يوما على ظهر سفينة.)

وضعت ملك الرسالة فى مظروف بعد أن رشتها بعطر يسمى عطر الحب كانت قد اشترته فى زجاجة أنيقة من باريس أثناء زيارتها لها مع مالك بيه، احتضنت الرسالة وأخذت تدور فى الغرفة مرددة أغنية قديمة لفيروز، كان ناجى يتابع ما يشبه أوبريت لبجعة حزينة لا يوجد على سطح البحر غيرها، تمنى أن يخرج ليمارس معها رقصتها الحزينة، لكنه استسلم لرقدته على بلاط الغرفة البارد تحت السرير، بدأ يغفو على وقع غناءها : شاهد نفسه يطير فى الأعالى يلمس حواف السحاب

sa7eralkutub.com

وتخوم الفضاء، يقفز من كوكب إلى آخر حتى استقر على سطح القمر، ثم راءه وقد أحاطت به مجموعات من أرواح هائمة، ملائكة، أبالسة، شياطين، ملثمون، عساكر من الأمن المركزى بلا رقاب، ميز وجه ملك بين الجموع، الجميع فى صراع عنيف، الأبالسة يكومون الملائكة على أرض القمر ويركلونهم بأرجلهم، الأرواح تزعق مفزوعة، عساكر الأمن المركزى تجرى خلفه بالهروات وهى تنعق، يجرى ويركض كالعادة بين تجاويف وفوهات القمر وصخوره، ظل يلهث، تعثر، انزلق على أحد الصخور، أشهروا الهروات فى وجهه، فجأة تسللت من أركان الفضاء موسيقى راقصة، بدأ الجميع ينتبه، ضربت الموسيقى الجميع فى أوتارهم، سقطت الهروات من أيدى الجنود، تناست الملائكة والشياطين روح العداء المتبادلة وفضوا عراكهم وهم ينصتون لتلك الأنغام المسيطرة، تحلق الجميع حوله، تشابكت الأيادى، تعالت الصيحات فى نشوة، خلع جنود الأمن المركزى أحذيتهم الثقيلة ؛ لأنها لا تناسب هذا الجو الكرنفالى، استخفت الموسيقى الجميع، فانخرطوا فى رقص دون خجل، كأنما يطرودن انفعالات ورغبات مكبوتة، يقف ناجى وسط الدائرة مندهشا، وجد نفسه يرقص معهم،دخلت ملك إلى وسط الدائرة، امسك ناجى بيديها، بدت كفراشة فى تنورة من ألوان الربيع، اجتهد ناجى ليتواصل مع تنقلاتها وحركاتها السريعة، حدقتهم الجموع المتحلقة بعطور وزهور، طارت به ملك وحلقت فى أجواء القمر، وقفت به على سطحه الخارجى، شاهدهما سكان الأرض من الأسفل كهلالين متعانقين، وبينما الجمع على حاله من الرقص والمرح، جلجلت صيحة عميقة عنيفة قادمة من كل الأركان، أحدثت دويا هائلا، فانفلق القمر وتناثرت أجزاؤه فى الفضاء، كقطع

sa7eralkutub.com

من زجاج بلورى شفاف أحدثت خدوشا فى جدار السماء، تعالت الصيحات المفزوعة وهوى الجميع فجأة، انفلتت ملك من بين يديه، فرأى نفسه ينحدر بين ملايين من المخلوقات والكائنات التى أرعبتها الصيحة، يواصل السقوط، لا يقوى أن يتشبث بشىء حتى هوى واستقر فى بئر سحيق، صرخ بجنون ربما يسمعه أحد، صيحاته كانت ترتد، فتهز أركان البئر، شعر أنه يختنق، الماء يملأ جوفه، يتقافز لأعلى، فيسقط بين جنبات البئر، أنهكه التعب، استسلم لمصيره، فرأى ابتسامة خضراء تطفو على وجه الماء ثم تنقسم إلى ابتسامات صغيرة فيما يشبه فقاعات، تعلق بأحدها وحملته إلى أعلى.

فى الصباح استيقظ على صوت الدولاب، كادت رأسه تصطدم بألواح السرير الفرعونى الذى يرقد تحته، مسح غشاوة الصباح التى نسجت خيوطها على عينيه، رأى ملك تلبس حذاءً خفيفا دون جورب، ثم استمع صوتا (زززززز)، فسره بأنه سوستة حقيبة تفتح أو تغلق، نظر فى ساعته لكنه لم يتبين عقاربها تحت وطأة الظلام أسفل السرير، رفع بهدوء طرف الملاءة وجدها تضع مظروف الرسالة فى الحقيبة (زززززززز)، انطلقت ملك إلى الخارج، تعجب من إصرارها الغريب على كتابة الرسائل لرجل لم يتكلف عناء أن يرد عليها برسالة واحدة منذ سنوات، مكث بضع دقائق إلى أن اطمأن أنها غادرت، خرج بعدها بحذر ليتابعها من نافذة المطبخ وهى تحتضن حقيبتها التى تحوى الرسالة بحنو بالغ فى طريقها إلى مكتب البريد، تشعر بسعادة ممتزجة بقلق بالغ، كأنها عذراء تكتب رسالتها الأولى المفعمة بكل سذاجة الرومانسية وأخطائها الإملائية، فى مكتب البريد نظر لها الموظف من

sa7eralkutub.com

خلف الواجهه الزجاجية بإبتسامة ساذجة مغلفة بشفقة، سألها قبل أن تتحدث: ـ نابولى طبعا؟!

فى هذه الأثناء كان ناجى يفترش صندوقها الذهبى بين قدميه بعد أن أخرجه من الدولاب، قرأ بشغف تلك الرسائل المتبادلة بين ملك ويوسف عبر السنين كأنه يفك شفرات عالمها وتاريخها السرى، تعجب من أنها تمتلك نسخة من كل رسالة أرسلتها إلى يوسف، أغلق الصندوق بين يديه، وأسند رأسه على حافة السرير، أغمض عينيه للحظات، ثم برقت عيناه بقوة وكأنه قد توصل إلى شىء ما.

* * * *

sa7eralkutub.com

(9)

من كوة المخزن شاهدها تتلقى الرسالة من ساعى البريد الذى كان متقنا تماما لدوره، قال لها بسعادة مصطنعة وهو يهز المظروف فى يديه:

ـ من نابولى يا مدام ملك

كأنها لم تسمع أو كأن عقلها لم يستوعب بعد

ـ نعم!

ـ نابولى..... رسالة

قالها الرجل وهو يضغط على الحروف فى محاولة لتأكيد جديته، أخذتها متشككة أو مصدومة أو مفزوعة أو متشككة ومصدومة ومفزوعة، نظرت للرسالة فى حيرة، لسنوات طويلة انتظرت مثل هذه الرسالة، كانت تعيش على أمل أن تذهب لمكتب البريد ذات صباح فال يقابلها ساعى البريد بإبتسامته الخبيثة المعتادة وهو يهز رأسه بالنفى دون أن يفتح فمه، ثم ينشغل بمداعبة الرسائل التى أمامه،

سنوات طويلة ظلت تحلم بتلك اللحظة، تعتقد أن رسالة يوسف المنتظرة حين تأتيها ستنزع عنها مظروفها بأظافر اللهفة والشوق، تلتهم حروفها على عجل، ثم تعيد قراءتها آالف المرات، تعود إليها بعد ذلك تستنشق عطرها، عطر الحب الخاص الذى بصم به يوسف الرسالة، لتعيش عليها بعد ذلك سنوات إضافية من اآلمل والبهجة، وضعت ملك الرسالة على منضدة مستديرة وجلست على كرسى من الخيرزان

www.sa7eralkutub.com

sa7eralkutub.com

بفناء حديقتها، تنظر لها فى ريبة، كأن هذا المظروف مفخخ، ربما بخيبة جديدة أو مفاجأة لا تتحملها، مرت فترة طويلة من الوقت وهى جامدة، أفاقتها دمعة حبيسة متحجرة ولزجة أخذت كل هذا الوقت الطويل لتفلت وتسقط ثقيلة على خدها بلون يشبه لون الحسرة، بصعوبة بالغة تغلبت على تخشب أعصابها، تناولت الرسالة، فضت مظروفها بقلق، وبمجهود مضاعف بدأت تقرأ وهى تغالب سحابة ما جاسمة على عينيها.

كمخرج سينمائى يجلس متخفيا بين مقاعد المتفرجين، ليتابع بقلق ردود أفعالهم على مشهد ظن أنه صممه بحرفية، تابعها ناجى بشغف وتوتر، خاصة أنه اجتهد كثيرًا خلال الأيام الماضية فى دراسة رسائل يوسف القديمة إلى ملك، حفظ مرادفات قاموسه، تراكيبه المفعمة بالحيوية، أحاسيسه التى تكاد تقفز بين الأسطر، ثم نحت مثل كل ذلك على ورقتين داخل مرقده بالمخزن بعد أن أعاد الكتابة عشرات المرات، كان ذلك شاقًا، خاصة أنه من الصعب على بطل سينما العنف والأكشن أن يتحول مرة واحد إلى سينما الرومانسية الساذجة، الأن يتابع بقلق، خاصة أن تلك السيدة من مدمنى هذه السينما التى لا يجيدها.

ظلت فترة طويلة تقرأ الرسالة، تغمض عيناها، ترفع رأسها لأعلى ثم تعيد القراءة، وضعتها على المنضدة، ثم أعادت القراءة، نهضت من كرسيها الخيرزان فى تثاقل، داعبت طيور الحب بقفصها، ثم نظرت للرسالة وجلست تقرأ، لاحظ ناجى توترها، شعر أن الرسالة انهكتها، ربما لأنه بالغ فى الأداء فى محاولته لتقمص هذا الدور الجديد الذى فُرض عليه، فى المساء تأكد أنه قد نجح عندما شاهدها من أسفل السرير

sa7eralkutub.com

تكتب ردًا على رسالة يوسف، بعدها ظلت ترقص فى غرفتها بروح جديدة، بإيقاع طائر بلل المطر ريشه المحروق، بعد عدة أيام وصلتها رسالة أخرى، غفت حيت انتهت من القراءة على الكرسى الخيرزان لفترة طويلة،انتابه القلق، لكنه قال: الرومانسيون دائما يغفون، ربما لأنهم يعيشون فى أجواء لا تتطلب اليقظة الكاملة التى يتمتع بها القتلة المحترفون، بعد ساعتين استيقظت، كأنها قد عادت من نابولى، كأنما قد عادت من عند يوسف فقبلته كما قبلها فى رسائله، داعبت بقدميها مياه خليجها وأكلت معه البيتزا، بعد ساعة شاهدها تعبر فناء الحديقة فى طريقها إلى الميناء، لتنتظر يوسف الذى أكد أنه سوف يصل قريبًا، تعدو أمامه بوجه دَب فيه ألق من نوع آخر، كأنها شجرة عجوز أُعيدت إلى الأرض لتنمو من جديد على أمل ألا تذبل أوراقها مرة أخرى.

فى غمرة هذا الأداء المثير الذى قدمه، نسى ناجى تلك المهمة التى جاء إلى هذه المدينة من أجلها، تذكرها حين كان يسلم ساعى البريد رسالته الثالثة ومظروفا آخر ثمنًا لهذا الظهور الخاص حين يأتى صباحا ليسلمها الرسالة، حينها تذكر اللفافة المطوية وصورة ضحيته التى كانت قد غادرت المدينة بعد أن ملت من كثرة الانتظار.

* * * *

sa7eralkutub.com

(10)

كمحترف لا يحب أن يهمل فى عمله، عاتب ناجى نفسه كثيرًا على إنشغاله عن المهمة المحددة التى جاء إلى هذه المدينة من أجلها، ظل يؤنب نفسه طيلة رقدته فى المخزن، قرر أن يرحل هذا المساء مكتفيًا بتورطه مع هذه السيدة إلى هذه الدرجة، قفز عبر نافذة المطبخ بحثًا عن كوب شاى أو ما يصلح كوجبة إفطار، تناول قطعتين من الجبن الرومى وملعقة مربى، سمع صوت ملك بالخارج، لم يتأكد إن كانت تتحدث إلى أحد أم تتحدث إلى أشيائها كالعادة، فتح الباب بحذر، سمع صوتًا نسائيًا قادما من الطرف الأخر للصالة، تقدم خطوات قليلة إلى حيث مكانه المفضل فى الجزء العلوى من الصالة، بدت له السيدة فى منتصف الثلاثينات، بيضاء بوجه دائرى وشفاه ممتلئة،لم يتح له مجال الرؤية أن يستكشف أجزاء جسدها، لكنه سمعها جيدا تحكى: فجأة وجدته أمامى فى السوبر ماركت، خرج من وراء زجاجات العطور كآخر مرة رأيته من عشر سنين، اللحظة كانت صعبة يا ملك، قر ب منى، لف ودار بجنون، قلبى كاد ينخلع من مكانه، كدت اتعلق به، أبكى على صدره.. ها.. فاهمة؟... واصل الإحساس؟ تماسكتُ بصعوبة، لمسنى، شعرتُبرعشة غريبة، تجمدت، مستسلمة تماما كأنى فى حلم لذيذ، خرجنا، مشينا بين الناس فى الشوارع، نسيت أنى على ذمة رجل آخر،

معايا يا ملك...؟!

sa7eralkutub.com

كلام السيدة مس شيئا ما داخل ملك، وجدها ناجى شاردة، تعبث يدها بشعر السيدة فى حركات أتوماتيكية، قفز بين قطع الإساس وذهب إلى الحمام، بعدما انتهى وجد علبة السجائر على رف بين زجاجات من الشامبو والعطور المختلفة، أخذ اثنتين ودسهما فى جيب قميصه، عندما عاد إلى موقعه السابق كانت السيدة مازال تحكى

ـ جلسنا على الصخرة عند الشط، اشترى لى هريسة، دخلنا سينما، كنت تائهة يا ملك كل هذه السنينن.

كانت ملك صامتة، مشوشة تماما، تفاصيل واضحة قادمة من سنوات بعيدة كانت تتقافز أمامها:

ـ كافية نقابة الصحفيين، منتصف 1999

ـ مضطر يا ملك، البلد زريبة لا تصلح للبنى أدمين، رئيس التحرير بيقول: أحنا صحيفة معارضة صحيح، بس معارضة مستأنسة، حاجة كده زى السينما النظيفة إللى طالعة الأيام دى، بس لا هى سينما ولا هى نظيفة، عشان بتقدم واقع مغشوش ومغسول، مش ممكن اقعد هنا اغسل الوساخة واقدمها فى عمود، اغسل صحون فى نابولى أحسن.

قرار يوسف كان بمثابة إنطفاء لروحها، كان عرابها الذى قاد خطواتها مذ كانت معه فى المدرسة الإبتدائية وحتى الجامعة، شيخها الذى يتلو لها الآيات ليل نهار من أناجيل الحب، فتؤمن بها وتحفظها عن ظهر قلب، فلما ركض بعيدا فقدت بوصلتها تماما.

sa7eralkutub.com

ألقت ملك بنفسها على الأريكة، ظلت فترة طويلة كأنها محنطة، من بعيد رأى ناجى دمعة نقية تماما تتلألأ فى عيونها، غفت على وقع معزوفة "مونامور" الشهيرة التى تنبعث فى أنحاء الصالة، ظلت السيدة تحكى، رأى وجهها مشطورًا إلى نصفين: نصف بلون وردى مبهج ونصف بلون خروبى يميل للكآبة: ـ أنا طلبت الطلاق، ضربنى.. أنتى فاهمة إنه أنانى، بيحافظ على برستيجه كطبيب كبير، تعرفى لو بيعاملنى بنفس الرقة كما يعامل زبائنها كنت دوست على قلبى... بذمتك ادوس على قلبى لية؟ ولية القلب بندوس عليه بسهولة؟

استفاقتْ ملك، اشعلتْ سيجارة، نفخت دخانها لأعلى بشكل متقطع كأنما تلفظ حملا ثقيلا بداخلها، تستمع نصف شاردة إلى السيدة التى حدثتها عن شخصية زوجها، وصفته بأنه عندما يخلع معطفه الأبيض يصبح مجرد رجل(بيِضْ)، حدثتها عن عجرفته الأ متناهية، عن خطواتها المحسوبة عليها كونها زوجة الدكتور ماجد الحلوانى، عن ليلة الدخلة التى ظل خلالها ساعة كاملة على الهاتف مع مريض، ثم نام معها ببرود ة جراح محترف، طلبت من ملك أن تصبغ شعرها بلون كستنائى خفيف استعادة لذكريات خاصة قديمة.

بعدما انتهت ملك من عملها غادرت السيدة مسرعة، لملمت ملك حاجاتها والقت بجسدها على أحد المقاعد، استطاع ناجى من موقعه أن يستمع إلى " سيمفونية دخول الجنة "، كان يعزفها كثيرا فى وحدته كما استمع لها أول مرة من "أندريه ريو "، سارخدرها فى جسده، غفا لفترة لا يعلمها فى موقعه وراء أحد قطع الأنترية، استيقظ بعدها، أطل برأسه ليتعرف على ما يحدث، ترقص ملك منتشية فى مقدمة الصالة،

sa7eralkutub.com

تأكد تماما من استدارة مؤخرتها الكامل والمدهش، من وجهه نظره هى كبرى علامات الأنوثة المسيطرة، أدرك ذلك بكل وضوح عندما وجدها تتعرى وتقذف بقطع ملابسها قطعة قطعة، لم يجد فى المشهد ما يجعل غرائزه تنتصب بقدر ما وجد فيه مشهدا روحيا صافيا، ذكره بحلقات الذكر التى طالما كان يسكر على إيقاعها الساحر وهو طفل صغير، أخذ يهتز ويتمايل معها نافضا عن كاهل روحه أثمالا وأثقالا، شعر بنشوة عميقة وقطرات العرق تبلل جسدها الذى بدا يضوى ويلمع فى مدراته واستداراته، بات أحد نهديها واضحا جليا كقبة كنيسة تداعبها حبات الندى المتساقط أحد صباحات الشتاء، استمرت فى رقصها لفترة طويلة دون تعب، كأن روحها تريد أن تنسلخ من جسدها لتهيم فى الصفاء الجميل أو كأنها فى طريقها إلى الجنة، جسدها ينتفض بشدة أحيانا ثم يلين ويهدأ قبل أن يعاود ثورته من جديد، كأنها ترتقى من درجة إلى درجة، من مقام إلى مقام أعلى،يرتقى معها كأنها سيدته ومولاته، بدا له جسده خفيفا وبدت هى له كطائر يحلق فى الأعالى، يشق بحر الظلمات، يخربش جدار القمر بيديه، ينقر السحب الحبلى بالماء، يغسل رذاذه السموات، ظل يجتهد ليواصل الطيران معها والتحليق بجوارها، إلا أن خفتها كانت تدفعها لأعلى، لأماكن ما كان له أن يصل إليها،أين له كل هذه الخفة؟ جلس يتابع سياحة هذا الطائر المحلق فى دنيا الله وهو يخترق ويخترق حتى غابت عن ناظريه فى الفضاء السحيق، قبل أن تعود ثانية وقد أرهقتها الرحلة منجذبة إلى أسفل بسرعة رهيبة، تنحدر وتنحدر، عندما توقفت موسيقى دخول الجنة، حطت جسدها على أرضية الغرفة ذاهبة فى نوم عميق، اقترب ناجى من جسدها المسجى، لأول مرة يقترب إلى هذا الحد، كانت

sa7eralkutub.com

عارية تماما وغارقة فى عرقها، لم يستطع أن يتبين خط الكدر الذى يعكر صفاء وجهها، حملها بين ذراعيه كريشة وديعة، أودعها إلى كنبة عريضة وهو يتأمل جسدها كراهب متجرد، غطى جسدها المعروق بملاءة، أدرك أن روحا كهذه ملائمة تماما لجسد كهذا.

• صحت المدينة الساحلية بعد عدة أيام على خبر مفزع، حيث وُجِد الدكتور ماجد الحلوانى جثة هامدة فى عيادته عاريا تماما، كما وُجِد عضوه الذكرى مبتورا فى إناء من الفورمالين أثار ذلك العديد من التكهنات لدى رجال التحقيق وأهالى المدينة، البعض عدها جريمة من جرائم الانتقام للشرف، هذا ما يفسر قطع العضو الذكرى للدكتور، استبعد البعض ذلك التحليل نظرا لسمعة الدكتور الطيبة وكونه رجلا من رجالات الإحسان، يكفيه تلك الجمعية الخيرية التى يشرف عليها وتقدم العلاج لغير القادرين، البعض أدرج الجريمة فى خانة الحقد والغيرة من نجاح الدكتور المبهر كجراح قدير، آخرون رجحوا أن ثمة شبهه سياسية وراء الجريمة خاصة أن التكهنات وضعت الدكتور كمرشح للحزب فى الانتخابات القادمة وربما يكون أحد خصومه السياسيين وراء الجريمة، انتشرت تلك الأقاويل وغيرها فى المدينة الصغيرة والتى نادرا ما تشهد تلك النوعية من الجرائم، خاصة أن قطع العضو الذكرى أعطى للحادث نكهة خاصة كما أن الصحافة بدورها اعطت للموضوع زخما خاصا بإضافة توابلها التى تناسب ذائقة القارىء، كما أصبح شائعا أن تجد الكثير من كاميرات القنوات الفضائية تجول طرقات المدينة لتغطى الحادثة.

sa7eralkutub.com

عرفت ملك بالحادث من خلال أحاديث الناس أثناء جلستها اليومية المعتادة على رصيف الميناء، دفعها هذا إلى متابعة الصحف التى تأتى لها كل صباح دون أن تهتم بمطالعتها، لم يكن ذلك صادما لها بقدرما كان مدهشا ومثيرا للعجب، تساءلت إن كان ذلك له علاقة بزبونتها وحبيبها العائد؟ وضعها التساؤل فى حالة من القلق وعدم الارتياح ؛ شعرت بنوع من المسؤلية تجاه ذلك، كونها تمتلك معلومات ربما تنير بصيرة المحققين، تساءلت إن كان ذلك يعد إفشاء للسروخيانة للأمانة؟ حسمت أمرها فى النهاية، قررت أن تذهب لتقديم العزاء متمنية بغض النظر عن تفاصيل الحادث أن تكتمل قصة الحب بين زبونتها وبين حبيبها العائد،بعد ثلاثة أيام من الحادث كانت الزوجة أمام ملك، شاهدها ناجى الذى ظل عالقًا فى هذا المنزل دون أن يجد لنفسه مبررًا كافيًا لذلك، تفك أزرار عباءة سوداء لتنخلع منها كاشفة عن جسد بض وناعم وعن إحساس بصفاء داخلى كبير، استقبلتها ملك بشىء من الحيادية أو ربما الحيرة، طلبت منها تغيير قصة شعرها بحيث تصبح أكثر حرية وانطلاقا، حكت لملك عن متاعب الفترة السابقة، عن خضوعها للتحقيق أكثر من مرة، وكيف أن أصابع الاتهام كانت تشير لها أو لحبيبها العائد أو لكليهما، حتى أن أم الدكتور القتيل وإخوته يعتزمون حرمانها من الميراث لكنها غير مكترثة لذلك، يكفيها أنها استعادت نفسها، أعلنت أن اليوم أخر عهدها بالملابس السوداء، وأنها ضجت من تمثيل دور الزوجة المنكوبة نظرت لها ملك متعجبة لكنها استرسلت:

ـ الأسود كئيب يا ملك، روحى مخنوقة... محبوسة

sa7eralkutub.com

قالت إنها قد اتفقت مع حبيبها العائد على الزواج بمجرد إنقضاء شهور العدة مباشرة، وإن كل منهما لن يفرط فى الآخر هذه المرة ثم ختمت: ربك رب قلوب

سألتها ملك عن اعتقادها فيمن يقف وراء الحادث، هزت كتفها فى تعجب، قالت إنها سألت نفسها كثيرا هذا السؤال ولم تصل لإجابة سوى أنها يد الله .

لم يكن أحد يملك جوابا شافيا عن هذا التساؤل سوى هذا القابع خلفهما، المتورط بحيادية تامة فى كثير مما بات يحدث داخل هذه المدينة وهذا البيت، وجد فى حديث السيدة عن عجرفة زوجها وغروره وتسلطه أمورًا كافية فى نظره للقتل، كان فيما يبدو مبعوثَ القدر ليعيد الأمور إلى مسارها الطبيعى والذى حادت عنه سابقا لظروف ما، إذ أنصت باهتمام بالغ لزبونة ملك عندما تحدثت عن غطرسة زوجها وطموحه الجارف الذى يكنس فى طريقه كل شىء، وهى مسوغات تكفى فى نظره للقتل، ظهور الحبيب السابق على مسار الأحداث أعطى للأمر وجاهة ومسوغا إضافيا، كان عليه أن يتأكد من ذلك بنفسه، لجأ إلى طرقه التى يجيدها تماما فى التمويه والتخفى، وجد فى أدوات ومساحيق ملك وملابس زوجها الراحل ما ساعده على ذلك، كان يخرج قافزا من على سور المنزل المتهالك صباحا قبل أن تستيقظ ملك، يعود ليلا إلى وكره فى المخزن بعد أن يتأكد أنها نامت وهكذا وضع الدكتور تحت رقابة مستمرة لثلاث ليال.. فى المستشفى، فى العيادة، فى الحزب، فى النادى، فى الكافية وهى أماكن اعتاد الدكتور أن يمر عليها يوميا، لعب معه البلياردو فى الكافية، عندما هزمه لم

sa7eralkutub.com

يتقبل الدكتور الهزيمة بهدوء ولا بروح رياضية، طوح بالعصا بعيدا فى غضب قبل أن يغادر القاعة فى حالة من عدم التصديق، فى اليوم التالى كان ناجى فى عيادته الفخمة كعجوز يرتدى نظارة سوداء يتسند على عصا خشبية وعلى يد ممرضة الدكتور الحسناء، أتم الدكتور فحصه السريع، باغته:

ـ لماذا لم يأت أحد معك.. أين أبناؤك؟.. بالتأكيد لا يسألون عنك، أنا لن أخذ منك أجرا يا حاج، بل لك عندى مفاجأة بعد أن نجرى الفحوصات صباح الغد

فى الموعد كان ناجى هناك، أقبل الدكتور يبشره بسلامة الفحوصات وأنها لشاب فى الثلاثين وليست لعجوزمثله، استطرد الدكتور فى وصف أوجاع بعض الناس ودور الطب فى تخفيف ذلك قال إن أجمل لحظاته هى التى يقضيها بين مرضاه، عرج بعدها إلى دعوة الدين إلى التعاون.....

ـ ألم يقل الرسول: المؤمن للمؤمن كالجسد الواحد، جسد واحد يا حاج،الناس لا تفهم هذه الإشارة.

دار حوله مطرقا قبل أن يستكمل: ـ تعرف حضرتك الإنسان ممكن يعيش بكلية واحدة.. آه هذه نعمة من الله، لكن ماذا لو فسدت هى الأخرى؟ لى صديق حالته هكذا وهو مستعد أن يدفع عشرة ألاف جنيه مقابل ذلك، لا تتعجل فى الإجابة، سأنتظرك غدا، مع السلامة... عشرة ألاف يا حاج.

sa7eralkutub.com

كان ناجى قد وصل إلى اقتناع كامل أن ينقض علي الدكتور فى هذه اللحظة، تذكر أن الدكتور قد اختار الغد كما اختار المكان والطريقة، ألم يقل أن أجمل لحظاته يقضيها هنا فى هذه العيادة، فليكن ما اختار الدكتور لنفسه، هذه سنته منذ زمن فى تعامله مع ضحاياه، أن يترك لهم حرية اختيار المكان والتوقيت، وربما يساهمون دون قصد فى اختيار الطريقة، نظر ناجى إلى الدكتور نظرة فاحصة من تحت نظارته السوداء، هز رأسه مبتسما وانصرف، قضى جزء من ليلته تلك يرتب لذلك، لم يكن الأمر يحتاج منه إلى عناء كثير، ليلتها كان يتناول بقايا من فطيرة بالسكر تركتها ملك بالمطبخ، وجد الدكتور يجلس قبالته على كرسى يشاركه فطيرته ويلتهم منها باستمتاع كامل، عندما انتهى الدكتور لحس شفتيه من السكر العالق بها موضحًا: أنه يعشق الفطائر بالسكر، لكنه تمنى أن كانت ساخنة

فى الصباح كان ناجى فى العيادة، دخل بترحاب كامل من الممرضة الحسناء التى طلبت منه أن ينتظر قليلا ريثما ينتهى الدكتور من تناول قهوته، أمسكت يده وأجلسته على كرسى فى صالة استقبال، سألته فى لطف إن كان يحب أن يتناول شيئا، هز رأسه شاكرا، لفت انتباهه صورة كبيرة للدكتور معلقة على أحد جدران الصالة الفسيحة، تأملها بحرص، حدد أنها قد تكون منذ خمس أو سبع سنوات، لاحظ أن نظرة الدكتور لم تكن صوب العدسة إنما كانت تحدق بقوة إلى شيء ما فى الأعلى، فسر نظرته تلك بأنها من وحى روحه الجموح الوثابة التى تهرس فى طريقها كل شيء وأى شيء حتى تصل إلى أهدافها، تطلع إلى بعض الشهادات التى تناثرت على الحائط داخل أطر أنيقة، لاحظ تقارب التواريخ المسجلة عليها مما أكد صحة استنتاجه السابق، أخرجته

sa7eralkutub.com

المرضة الحسناء من تأملاته عندما سمع وقع أقدامها التى تنبىء بامتلاء كامل فى منطقة الفخذ والسمانة، اقتربت منه وهى تربت على كتفه، سحبته برفق إلى الداخل، وضعته على مقعد أمام مكتب الدكتور، ثم لملمت من على المكتب بعض الأشياء وأخذت فنجان القهوة الفارغ ولفافة من الكرتون تنبعث منها رائحة فطيرة ساخنة بالسكر، خرج إليه الدكتور ماجد الحلوانى من حمام ملحق بغرفته مرحبا، طلب من الممرضة الحسناء ألا يزعجه أحد، دخل فى الموضوع مباشرة : ـ اعتقد أنك موافق يا حاج

هز الحاج رأسه، اخرج الدكتور من أحد أدراج مكتبه الأنيق شيكا، طلب منه أن يوقع على استلامه نصف المبلغ على أن يأخذ النصف الأخر بعد إنتهاء العملية، طلب ناجى أن يدخل إلى الحمام سريعا، رحب الدكتور وهو يعلق بأنه لم يسمح لذلك من قبل لأى من مرضاه، فى الحمام غسل يديه بعناية، برد وجهه بالماء، ارتدى قفازه بهدوء، سيطر على نبضات قلبه المتصاعدة، كان قد حدد تماما الطريقة كما اختارها الدكتور لنفسه... أحد مشارط الدكتور الكثيرة المتناثرة هنا وهناك فى الأوانى المعقمة، بعد أن خرج من الحمام سحب إحداها من إناء وجده فى الردهة المؤدية إلى مكتب الدكتور الذى استرخى على مقعد من مقاعد مكتبه الوثيرة يبسط ساقيه أمامه كأنه فى انتظار راحة أبدية، لوح بالشيك، أخرج قلما من جيب سترته: اتفضل يا حاج.. كل شىء جاهز

اقترب منه فى حذر، يداه خلف ظهره، يعرف تلك الأوقات تماما، تجنب النظرإلى عينيه، اقترب أكثر، الروح الأن تتأهب، وصلت إلى

sa7eralkutub.com

فورانها الكامل، تضغط للخروج، يسمع دقاتها العصبية على الباب، مد له يده بالقلم، امسك يده وضغط عليها بشدة، وضع المشرط بقوة فى جسد الدكتور الرشيق وفى المكان الصحيح تماما، أخرجه برفق بعد أن تأكد أنه لن يحتاج إلى طعنة أخرى، تأوه الدكتور، حاول أن يقف لكنه ترنح، اسنده برفق إلى المقعد، ارتعش وانتفض، الروح الأن تجلجل على أعتاب الباب، يكاد أن يسمع صوتها وهى تخربش فى عتمة الجسد متلمسة طريقها للنور، أعطى لها ظهره فى هذه اللحظات حتى تخرج دون استحياء، استغرق الأمر عدة دقائق، بعدها كان عضو الدكتور الذكرى يسبح بحرية تامة فى وعاء من الفورمالين، ورغم أنه لم يعتد ذلك ولم يمثل أبدا بجسد من قبل، لكنه عد ذلك رمزا لنشاط الدكتور المستتر، وذكرى أبدية لروحه المتغطرسة .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يقتل فيها ناجى بشكل تطوعى دون أجر، فعل ذلك عدة مرات من قبل عندما يجد أن الضحية قد قدمت مسوغات تكفى من وجهه نظره للقتل، ذات مرة أقام فى لوكاندة فقيرة القيمة بعض الوقت عندما لاحظ أن عاملة النظافة تقوم بسرقة متعلقات النزلاء، لم يكن هذا يعنى الكثير لناجى حتى عندما قامت الفتاة بسرقة ساعة فخمة من ماركة "روجر دوبيز" أهداها له أحد التجار الكبار نظير إحدى خدمات ناجى الجليلة له، لافتا نظر ناجى وقتها إلى قيمة الساعة التى لم تنتج منها الشركة سوى عشرين ساعة فقط حفاظا على التميز، عندما دخلت عليه عاملة النظافة فى صباح اليوم التالى مرتدية بيجاما قديمة لتغير ملاءة السرير فاجأها ناجى بسؤال عن السعر الذى باعت به الساعة، أجابت الفتاة بسرعة وبسذاجة واضحة: إنها أعطتها لصاحب اللوكاندة الذى يحرضها لفعل هذا دائما نظير علبة من الكشرى، فى

sa7eralkutub.com

مساء نفس اليوم استيقظ النزلاء على صرخات مفزوعة، وجدوا بعدها صاحب اللوكاندة يفترش بير السلم، ينظر لهم بعين شاخصة تتطلع لمستقبل غامض.

كما بقر كرشًا مستديرًا كبطيخة يتدلى من صاحب كشك لتأجير الدراجات عندما جاء إليه ولد صغير يوم العيد لتأجير دراجة ملوحا بجنيه فى يده، إلا أن الرجل رمى الجنية فى وجه الولد، ثم تحسس بطيخته وهو يطلب من الولد أن يذهب ويحضر خمسة جنيهات أو أن يضع هذا الجنية فى مؤخرة أبيه، ووجد الرجل بعدها بين درًاجاته بكرش مقسوم إلى نصفين، ومرة لاحظ أن أرملة كانت جارة له تذهب يوميا إلى المدافن، ولثلاث سنوات متواصلة لزيارة زوجها، كانت تذهب صباحا وهى تحمل سبتا به بعض من الفطائر والبرتقال وتعود عند المغرب بعين مقرحة وجفون منتفخة، تواصل نحيبا بصوت مبحوح يزعج أولادها الذين يعيشون فى كابوس دائم، فقرر ناجى أن يخرس إلى الأبد تلك الروح الجنائزية التى تسكن هذه المرأة، ليس لتلتقى بزوجها بل لأنها أصبحت عبئا على من حولها، مثل هؤلاء كان ناجى يتخلص منهم معتقدا أنهم يشكلون عبئا ثقيلا على الحياة، أوأنهم مجرد زوائد وترهلات من دهون عديمة القيمة فى جسد هذه الحياة يجب التخلص منهم لتواصل الحياة سيرها برشاقة.

* * * *

sa7eralkutub.com

(11)

قرر ناجى أن يحتفل بعيد ميلاد ملك قبل أن يغادر، قرر أيضًا أنها لن يسمح لنفسه أن يتورط فى هذا المنزل ومع تلك السيدة أكثر من هذا، برر لنفسه أن هذا الاحتفال ردًا على استضافتها غير المقصودة له كلما جاء إلى هذه المدينة، عرف بموعد المناسبة بالصدفة البحتة حين كان يعبث بأوراقها ورسائلها

، لا يعرف إن كانت تعبأ بأن تحتفل بمثل هذه المناسبة أم أنها تتجاوزها كذكرى مؤلمة، تَطلَب ذلك منه أن يغادر هذه المدينة الساحلية إلى أحد أوكاره فى القاهرة، حيث يُخفى مجموعة من كروت الإتمان تحمل حسابات مالية فى بنوك مختلفة وباسماء مختلفة، هى حصيلة عمله طيلة هذه السنوات السابقة فى مهنة القتل، فى الطريق كان محظوظا أن فلت من الأكمنة الكثيرة التى قابلها، ظل مشغولا ماذا يمكن أن يهديها فى هذه المناسبة؟

وجد ضالته فى أحد محلات خان الخليلى: قلما من الذهب الخالص على شكل سفينة لتكتب به رسائل وحدتها!

عاد فى نفس ليلة عيد ميلادها، حاملا أيضًا تورتة على شكل سفينة ومجموعة من البالونات وأشرطة الزينة، قام بتعليقها جميعا فى صالة المنزل مستغلا إنشغالها بوقفتها الأبدية عند الميناء، وضع التورتة على منضدة فى وسط الصالة، أشعل شمعة وحيدة غرسها فى منتصفها ثم اطفأ أنوار المنزل مكتفيا ببعض الأنوار الخافتة، اختفى فى مكمنه المفضل بين أحد المقاعد ودولاب الفضيات فى المستوى الأعلى من

sa7eralkutub.com

الصالة، يستمع إلى غناء زوج طيور الحب المنبعث من قفصهما فى الفراندا الخارجية، دخلت ملك لتفاجأ بهذا الكرنفال غير المبرر فى منزلها، لم تفهم ماذا يمكن أن يعنى هذا؟ ظلت تدور فى المكان بدهشة قلقة، تطلعت إلى البالونات وإلى أشرطة الزينة المتدلية بألوانها الزاهية، داعبت بالونة حمراء بعد أن اصطدمت برأسها، ذهب ناجى إلى المخزن، أمسك كمنجته التى اصطحبها معه بعد عودته، عزف مقطوعة "لأجل ليزا" وصلت الموسيقى إلى ملك فداعبت أعصابها، رمت بجسدها على أحد المقاعد، ذهبت فى ذهول لبضع دقائق، قامت ونظرت إلى التورتة فى دهشة ممتزجة بسخرية وقلق، وجدت بطاقة بجوارها:

ـ كل سنة وأنتى طيبة..أسف إن كنت قد سببت لك بعض الإزعاج

لم تفهم ملك معنى المناسبة ولا هذه العبارة المكتوبة فى بطاقة التهنئة، استجمعت تركيزها: تورتة، شمعة، بالونات، كل سنة وأنتى طيبة، بحثت عن أى شىء يذكرها بتاريخ اليوم، لم تعتد أن تحتفظ فى منزلها بمثل هذه الأشياء التى يعرف بها الناس مواقيتهم، ما حاجتها إلى ذلك؟ كل أيامها واحدة وكل أحداثها واحدة وأيامها متشابهات كالغيارات الداخلية البيضاء، تذكرت جريدة اليوم التى لم تفتحها كالعادة، ذهبت إلى هرم الجرائد المتراكمة وتناولت قمته، (29 فبراير): هذا الذى يأتى كل أربعة أعوام، السنة الكبيسة، يوم بوضع استثنائى، كأنه يوم لعنة، يوم أن وُلِدت فماتت أمها، لكن ماذا يعنى ذلك؟ ومن يعنيه ذلك أصلا؟ لم يسبق لها أن احتفلت به، لم تجد فيه أصلا ما يستحق الاحتفال، بالتأكيد لم تحتفل به أثناء السنوات القليلة التى عاشتها مع أبيها ؛ لأنه كان يذكره بحبيبة روحه، التى ماتت فى مثل هذا اليوم التى انجبت فيه وجه النحس

sa7eralkutub.com

هذا، كما ظل يناديها قبل أن يحنو عليها عندما أدرك هذا الشبه العجيب بينها وبين أمها، ولم يهتم عمها بكل تأكيد أن يحتفل به ؛ لأنه يذكره بتلك المسئولية الضخمة التى تركها أخوه فى عنقه كدمل، مالك بيه عندما تزوجها كان فى سن لا يسمح له بالانشغال بتلك الأمور.

فمن يعرف؟ من يهتم؟ الوحيد الذى فاجأها بذلك يوسف، أيام الثانوية العامة أهداها كارت بوستال على هيئة شموع مضيئة وحقيبة هدايا بها أرنوب صغير فقدته فى بيت عمها، فى أيام الجامعة احتفلا به فى جروبى فى وسط البلد وتناولت معه البيرة لأول مرة مع قطعة من كيكة الشيكولاتة ـ فى كافية نقابة الصحفيين قال لها كل سنة وأنتى طيبة لأخر مرة قبل أن يسافر سفريته الأبدية

من يكون غيره؟

ـ هو يوسف!

ـ تالله لأنك أنت يوسف

هل عاد المهاجر ليرد البصيرة إلى روحها الضريرة؟

ظلت تتساءل عن عودة ربان روحها، تبحث عنه فى أنحاء المنزل، حينها غادرناجى بحزن حقيقى من خلال نافذة المطبخ، عبر الحديقة، اتجه إلى السور الذى يقفز من خلاله دوما إلى داخل عالم هذه السيدة البائسة، ظل يسأل نفسه وهو يتسلق:

إن كان قد سكب مزيدا من الأسى على حرائق روحها؟

sa7eralkutub.com

(12)

هكذا دائما هم القتلة المحترفون، لا يطيقون أن ترتاح أقدامهم على أرض ثابتة، يبحثون دائما عن هذا البراح الواسع المتسع على قدر أرواحهم القلقة، لا يمتلكون رفاهية أن يضعوا لأنفسهم استراتيجيات طويلة المدى، ربما يناسب هذا أكثر رجل أعمال يخطط كيف سينعم بثروته أواخر أيامه، أو لشاب يدق باب الحياة أو حتى لموظف بسيط خرج على المعاش، رنين الهاتف أو الورقة المطوية يحددان وجة القاتل الأجير القادمة لساعات أو أيام قليلة على أكثر تقدير، بعدها يتنقل من هنا لهناك كملاح تائه تتقاذفه الأمواج، قد يرسو هنا قليلا، يستريح هناك بعض الوقت ثم يترك نفسه للموج ثانية، سفينة ناجى رست قليلًا على رصيف مدرسة الحب، ثم عاودت الركض دون أن تحدد وجهتها، هكذا دائما أصحاب هذه المهنة الوعرة التى تختار عمالها بدقة، إذ لا يتقدم أى أحد بأوراقه إلى أكاديمية القتلة، لها شروطها القاسية ومواصفاتها القياسية، من أهمها أن تمتلك القدرة على الركض، أن تجد دائما مساحتك من البراح، وقبل كل ذلك أن تكون طليقًا، ألا تكون مربوطا إلى شيء أوإلى أحد، سوى أن تكون عاشقا خالصًا ومخلصًا للحياة، إذ ليس على هذه الأرض من هو مسكون بحب الحياة أكثر من هؤلاء الذين يقدمون أقداح الموت المُرَّة للموعدين كل ليلة، كأنما يهربون من الموت بالموت، أويتقربون إلى الحياة بالقتل، للقتلة دائما تاريخ مع الركض، قد يبدأ بخطوة مرتعشة مشوشة لكنها تنتهى بهم إلى هذه المهنة التى تنتقى أعضاءها.

sa7eralkutub.com

تاريخ ناجى مع الركض بدأ منذ ما يقرب من الثلاثين عاما، يتذكر جيدا أنه كان فى العاشرة تقريبا عندما تم إغتيال السادات، شاهد مع أصحابه على المقهى العرض العسكرى الذى حضره الرئيس ببذلته العسكرية كاملة النياشين والأنواط، أطلق أحدهم شخرة عظيمة وهو يقول أنهم دفعوا نقودهم ليشاهدوا صدر سعاد حسنى وليس من أجل أن يشاهدوا زبيبة هذا الرجل الأصلع، انقطع إرسال التليفزيون فجأة، قال لهم صاحب المقهى أنه بعد أن ينتهى هذا الوش ويعود الإرسال سيعرضون الفيلم، عندما عاد الإرسال وجدوا تلاوت متتالية للقرآن، ضحكوا بشدة وواصلوا رص قطع الدومينو بغيظ مكتوم، بعدها عرفوا أن السادات قد قُتِـل فى مكانه على منصة العرض، عندما شاهد ناجى مع والده لقطات تصور عملية الاغتيال قال والده دون دهشة: ـ لو لم يمنع الحياء هذا الرجل من الركض ما استطاع أحد أن يقتله.

لم يفهم ناجى مقصده حينها، بعد الحادثة بعدة شهور وصل ساحر مغربى إلى دارهم يطلب أن يقابل صاحب هذا المنزل، ليعلن بطمأنينة كاملة أن كنزا وخبيئة كبيرة مدفونة هنا تحت هذا السور، لم يكن أحد يدرك حينها أن السور محصن بلعنة، وأن نبشه يفتح سراديب كراهية عبر متاهات تقود إلى الجحيم، لم يكن أحد يعلم أن المارد الذى يحرس الخبيئة لا يستطيع أحد أن يلجمه، مارد بعين واحدة مغروسة أعلى جبهته لا ترى إلا خرابات المدائن، لا يقتات إلا دماء مُخثَرة تسير عبر شرايينه التى تشبه أنابيب ضخمة إلى حجرات قلبه المظلمة، فيعيد تشكيلها إلى مسوخ سوداء، تقفز من فمه الذى يشبه بئرًا مظلمة ؛ لتنهش المسوخ كل من يصادفها.، فالسور اللعين حد فاصل بين منزل والد ناجى وبين منزل عائلة مجاورة، للعائلتين تاريخ مشترك فى

sa7eralkutub.com

حفلات دم ساخنة، سقط خلال رقصها الصاخب عشرات الراقصين، الذين لم يتحملوا ضجيج أوركسترا الموت، هدأ العازفون فجأة منذ سنوات ربما بفعل الملل، وألقوا آلاتهم المرهقة على الأرض، مقولة الساحر نبهت الجميع إلى أن هناك متسع للعزف من جديد، قرر الرجل أن يسحب صابع موزه الوحيد بعيدًا إلى حيث عمته فى القاهرة، ركض ناجى مع والده فى الوحل ومياه البرك المفترشة بالطحالب، داخل غيطان الليمون والبرسيم وحدائق البرتقال، ثم تدلا أحد المراكب ليعبرا النيل إلى الناحية الأخرى، حيث محطة القطار عندما أصابه التعب والإرهاق توقف، نظر إلى أبيه مندهشا ومستفسرا، نظر الرجل له بعين يملؤها يقين كامل: الرجال لا يتوقفون عن الركض، قالها وكأنه يتلو حقيقة مقدسة، سحبه من يديه وأخذ يركض،إلى أن أودع ناجى فى بيت عمته بأحد الأحياء المتطرفة بالقاهرة، ثم ركض ثانية عائدًا إلى بلدته ليلحق بالحفل الراقص، ظن الرجل أن ابنه أصبح فى مأمن، ولن يستطيع أحد أن يصل إليه، لكن ناجى لم يتوقف بعدها عن الركض أبدا، ليس فقط بسبب هروبه المتكرر من السجن بعد ذلكبل لأن الولد الصغير ظل يركض على سرير عمته التى تحتضنه هى وابنتها الصغيرة، فمبجرد أن تطفىء عمته نور الغرفة يرى أشباحهم تتقافز على الحوائط كخفافيش متآمرة، فيركض على ملاءة السرير التى تحولت إلى ميدان واسع بمربعاتها الخضراء والحمراء، يخرجون له عند حافة السرير من أحد المربعات الحمراء برماح مسنونة، تتساقط منها قطرات دماء لزجة، يركض عائدا متخفيا فى صدرعمته، فيزحفون من بين نهديها كديدان، لا ينقذه منها سوى أن يلطم نور الصباح النافذة، يهرب الجميع ويشعر

sa7eralkutub.com

بشد رهيب فى فخذه وبورم فى باطن القدم من أثر الركض طول الليل على ملاءة السرير.

وفى حصص الرسم يرسم كائنات تركض تكاد تخرج من إطار الورق، يسأله المعلم عن سر ذلك رغم أن الموضوع عن جمال الريف،

فيرد بعفوية لأن"الرجال ال يتوقفون عن الركض" .

فى لعبة االستغماية كان ينطلق، يركض فى الشوارع والأزقة ذاهلا عن كل ما حوله، ينسى اللعب والعيال، عندما يعود لا يجد أحد من العيال؛ ألنهم قد ناموا منذ زمن!

سور الكتب
sa7eralkutub.com

لكن كل ذلك لم يمنعه أن يعود ذات ليلة إلى مسقط رأسه، بعد مكالمة قصيرة من أمه تخبره بسقوط أبيه قتيال فى حلبة الرقص الدامى، ليس لكى يأخذ ناجى بثأر أبيه، بل لأن الأم المكلومة رأت أنه من العيب يدفن الرجل دون وجود ابن بار يركض خلف نعشه، عاد متخفيا أن

يركض خلف نعشه والده الذى يركض فى اتجاه المقابر على عجل وبسرعة قطعت أنفاس من يحملون النعش، وقتها ظن أن الرجل يريد أن ينهى آخر مائة متر من حياته بنفس القوة والسرعة التى بدأ بها!

بعد انتهاء مراسم الدفن رددت الأم المقولة ذاتها وهى تحتضنه باكية وبنفس نبرة ويقين الفقيد الذين تركوه منذ لحظات وحيدا فى قبره دون عشاء : "الرجال لا يتوقفون عن الركض"

www.sa7eralkutub.com

sa7eralkutub.com

بعدها ظل يركض هاربًا من القرية، يعرف أنهم يترصدونه، قد تنشق الحشائش تحت قدميه فجأة، ليخرجوا له شاهرين الموت فى وجهه، ربما فقاقيع الماء فى الترعة تدل على أنهم يندسون له تحت القاع، قد يجدهم عالقين بأسلاك الضغط العالى كخفافيش متحفزة، ربما تنكروا على هيئة سرب بط، وقد تكون عيونهم تضوى هناك عند مزلقان السكة الحديد، فبدأ يركض ليس فى اتجاه بيت عمته لكن إلى أى مكان أخر يصلح للركض، بوصلة الكراهية والحقد كانت تقودهم إليه، كان عليه أن يمارس تمارين الحيطة والحذر، فى كل مكان له اسم ومهنة، يحلق رأسه أحيانا على الزيرو، فتبدو كأسفلت ممسوح لتوه بالماء والصابون، أحيانا يترك شعره طويلا مضفرا سارحا على ياقة قميصه من الخلف،يبدو فى أوقات نحيفا كحطبة، بعدها يبدو ممتلئا كامل الدسم، ينتقل من لوكاندة صغيرة فى حى شعبى إلى غرفة ما على السطوح فى حى راقى، ينام مرة فى أحد جراجات السكة الحديد وحينا فى أحد الأضرحة كمجذوب، عاش أياما فى أحد الأديرة كمسيحى زاهد قبل أن تكتشف أمره راهبة زقعت فى هواه، فطلبت منه أن يهربا سويا من الدير، أخذ يركض بين أشجار الليمون والصبار وهى تستحلفه بمريم المقدسة أن يأخذها معه، يتحسس بحرص كل شىء قبل أن يقترب،يضبط إيقاع نبرة شخيره قبل أن ينام،لا يجب أن تستقر إليته على كرسى المرحاض خوفا من أن يقفزوا من النافذة أعلى رأسه، يكتم سعاله وضراطه وإلا سمعوا صوته، تتمدد قدماه داخل الحذاء أولا، تزحف داخله ببطء، تنظر يمينا ويسارا، تتلفت خلفها ثم تعدو، ينفض ملاءة السرير قبل أن ينام خوفا أن يكونوا بين طياتها، كانوا

sa7eralkutub.com

دائما وراءه، يراهم فى وجوه الناس العادية فى الشارع، عند بائع عصير القصب، على أغلفة علب السجائر والتونة.

ذات يوم حطموا فاترينة زجاجية لمحل ملابس حين كان يتأمل جاكيت شتوى، فانطلقوا خلفه كدمى بلاستيكية شاهرين أسلحتهم المخفية فى طيات ملابسهم، ظل يركض فى شوارع وسط القاهرة دون وعى حتى وجد نفسه قد أوغل فى الصحراء.

خرجوا له مرة من تفاصيل فيلم سينمائى إذ توقفت سيارة مسرعة فجأة فى حركة دائرية محدثة دويا وغبارا، لقطة كلوز أب على السيارة، زجاج فاميه غامق يخفى من بالداخل، الزجاج ينسحب لأسفل، عيون غليظة تترقب فى حقد، الأصابع تتحسس برفق الأسلحة، قبل أن يقفزوا من السيارة ليطاردوه، انسحب ناجى كشبح طائر يشق طريقه فى ظلام قاعة السينما، كما ظهروا له على مؤخرة فتاة ليل شاهرين أسلحتهم كغزاة رومانيين رافضين بكل حسم أن يفرغ من لذته، فهب ناجى من على جسدها عاريا، يركض فى فضاء الله الفسيح دون أن يهتم إن كان قد أخذ قضيبه معه أو تركه وحيدا مرشوقا فى فرج الفتاة!

يندهش عندما يجدونه ثانية، شعر أنه لا يجب أن ينام واقفا طوال عمره من أجل حفنة تعساء يرون خلاصهم فى قتله، لا يمكنه أن يعيش دائما مثل برص يرتعش على الحائط، حينها تعقبوه بوجوههم الكالحة وبملامحهم التى ظهروا بها فى كوابيسه اليومية المعتادة على أحد كبارى القاهرة، انزلق من بين أصابعهم، تأبط سور الكوبرى العتيق، احتواه النيل بترحاب مبالغ فيه وخبأه بين جنباته، سبح طويلا متدثرا بالظلام، خيل له أنهم كامنون فى الأعماق، وأنهم سيسحبونه من

sa7eralkutub.com

قدميه إلى أسفل كتماسيح موتورة، عندما وصل إلى الجانب الأخر من النهر ارتمى بين أكوام من الحلفا والبوص وهو يرتعد، ضربته نوبة حمى قاسية، شعر بدائرة مغلقة من السخونة والغليان تندفع كحمم من رأسه إلى أنحاء جسده وبالعكس، راح يهلوث باستفاقة وبوعى كامل، ينزلق من أنفه ريم وزبد أبيض وهو يعلن للخلاء المحيط قراره المصيرى:

"ما دمتم قد وضعتمونى على حافة القتل فلتموتوا جميعا وتهبونى الحياة، ليكن القتل ما دمتم ترون أن القتل من أعظم اختراعات الإنسانية، إبليس نفسه لم يُضبَط يوما بحوزته سكينا ملطخا بالدم ولم يجد خبراء المعامل الجنائية شعيرات من فروة رأسه بين أظافر الضحايا، لتكنْ محرقةً إذن، نارهُا ليست بردا ولا سلاما عليكم بل حممًا تلفح وجوهكم وتطهركم تطهيرا، ليكنْ طوفانا يعلو الجميع، لا سفينة ولا نوح ولا من كل زوجين اثنين، وعندما تبتلعكم الأرضُ فى قرارها المكين، تخرج الشمسُ من مخدعها وتشد ستائرَها على الليل المظلم، ليبدأ نهارٌ آخر، تتشكل الأشياء من جديد، لعل الطبيعة تتلافى خطاياها السابقة هذه المرة "

فى الصباح داهم القرية متسحبا وراء أستار الظلام الذى انشق فجأة عن كائن خرافى خرج من رحم الطبيعة بعدما لقحوها بدم متخثر، يشهق شهقة مجلجلة فى الفضاء تفزع على إثرها الطيور والعصافير النائمة بإستكانة فى أعشاشها، يسكب الموت على رءوسهم واحدا فواحدا، بقلب بارد كقمة جبل ثلج،يفور، يرتعد، يرتعش، يعلو صدره ويهبط، يترشرش الدم الحامى الطازج على وجهه، تأخذه سنة

sa7eralkutub.com

من وجد، يذهب فى سكرة إثر سكرة فيجد نفسه قد اقترب واقترب، فيفض شمعا أسودًا خُتمت به أرواحهم المتشحة بكراهية، يقفز من منزل إلى آخر، يمارس معهم رقصتهم التى يجيدونها، فلكلورهم الحافل بالقتل والنحيب والعديد، عندما وصل إلى المنتهى، القى نظرة خلفه على القرية فوجدها تتمطع وتتثائب وتنفض النعاس عن عينيها لتواصل حياتها المعتادة.

ربما هكذا يبدأ القتلة، هذه أوراق إعتمادهم، طلبات الترشيح، مراسم التنصيب، تبقى خطوة واحدة، بعدها يتم تعميدك فى نهر الدماء الذى لا يجف، لتكون مَسيحًا مخَـلِـصًا لهؤلاء المرهقين من الحياة أو الذين أرهقوا الحياة بأفعالهم، يصبح القتل حرفة لا تجيد غيرها.

جأت الفرصة لناجى تسعى إليه كقدر لا فكاك منه، بعد أن تحول إلى أسطورة كبرى للقتل تلاحقه الشرطة فى كل مكان،اصطفاه أحد رجال الأعمال لنفسه لتصفية خصومه فى عالم البيزنس والسياسة بالإضافة لما يستجد من أعمال، فاحترف مهنة القتل، يقتل من يرى السيد "رامز"أنهم يستحقون القتل، مشيئة رامز بك هى التى تحدد، فى مخبأ قريب من أحد الجبال، يظل فى حالة كمون حتى تأتيه ورقة مطوية صغيرة بها بعض المعلومات عن الضحية وصورة شخصية حديثة له ـ وهى مسوغات كافية فى نظره للقتل ـ بالإضافة إلى نصف أتعابه التى تكتمل بنجاح العملية، حينها يضع ناجى خطته، وعندما ينفذ بنجاح يعود للكمون فى انتظار ورقة مطوية صغيرة بها اسماء أخرى، الاسماء هنا لا تهم كثيرا، يكفى أن السيد رامز يريد.... رجل أعمال منافس، عشيقة سابقة، صاحب خائن، خصم شرس على مقعد

sa7eralkutub.com

فى البرلمان، الاسباب لا تهم .. صفقة ضخمة، تنافس على ما بين أفخاذ امرأة، خسارة على طاولة القمار، أحدهم عكر صفو السيد أثناء الشراب، موظف له ضمير لا يلين، وزير له بطن حوت لا تمتلىء، كلها مجرد حالات تقف أمام طبيب محترف، تنتظر فقط مشرطه الذى لا يخيب، ينفذ ناجى ويعود إلى خلوته فى الجبل، حيث وفر له السيد رامز كل أسباب الرفاهية والمتعة التى تكفل له إقامة سعيدة من أفضل أنواع الطعام والشراب الذى كان يأتيه يوميا من أكبر فنادق ومحلات العاصمة، علاوة على تشكيلة من ملابس ونظارات راقية، يكتفى ناجى بأن يرتديها صباحا لمجرد أن يكسر حدة لون الرمال المحيطة به، فضلا عن يمامات المتعة الاتى كنْ يأتينْ خصيصا ليرقُدنْ فى فراشه عاريات يداعبنْ عضوه المنكمش فى لباسه كبلبلٍ مسكين، يقضى وقت فراغه يعزف مقطوعات على كمان ألمانى اشتراه مؤخرًا.

عاش لسنوات ـ ما بدا له بعد ذلك ـ حياة معلبة لم تروقه، وبدا هذا الجبل الواسع غير كافٍليمارس الركض، يود أن يذهب إلى الحياة ليطاردها وينتزعها ويمارسها، لا أن تأتيه مستسلمة خاضعة فى أحضان الجبل، اعترض السيد رامز واعتبرها مجرد نزوة طارئة، أغدق على رجله مزيدا من أنواع المتع والرفاهية ليضمن استمرار مشيئته، كما أرسل له يمامة صغيرة من يمامات الصفوة تقيم معه وتكبح جماحه نحو الركض، فتاة بإمكانيات هائلة تجيد كل فنون المتعة ومختلف أنواع اللذة وفنون الغنج، بالإضافة إلى الغناء والرقص وتأوهات الفراش الساحرة التى كانت تهز غرائزالذئاب والسباع الذين يتحلقون حول المخبأ الجبلى فى استمتاع.

sa7eralkutub.com

اندهش ناجى من ضخامة معارفها وتبحرها الواسع فى هذا المجال، ظن أنها جارية لعوب هربت قديما من قصور أحد الخلفاء من أجل أن تغرقه فى متعة لا تنتهى، لا تكل ولا تمل، لا تجف ولا تنضب، تستفز رغبته فى كل وقت، ضاجعها مئات المرات فى أيام قليلة إلا أنه لم يملها، فى كل مرة كانت قادرة على تقديم الجديد، كأنها بألف جسد، كتاب ضخم لا تنتهى أوراقه يحوى كل مخزون البشرية عبر كفاحها الطويل من أجل المتعة، كلما يخترقها يتذوق لها طعما مختلفا، اعتقد أنها تبدل فرجها كل ساعة من كيس ضخم وضعته أسفل السرير، تنفخ بصبر فى شمعته كلما انطفأت إلى أن توقدها من جديد، عندما تتساقط الشمعة فى النهاية ذابلة تحكى له عشرات الحكايات والحواديت سواء فى مجال تخصصها فى فن الإيروتيكا والبورنوجرافيا أو حكايات و أسرار وفضائح الرجال الذين استخدموها من قبل، ذات مرة وحينما كانت تأخذ بيده إلى بابها سمع صوت أبيه يتردد بين حواف الجبال بالحقيقة المقدسة :(الرجال لا يتوقفون عن الركض)، كان معنى هذا أن يتخلص من السيد رامز نفسه ؛ لأن السيد لن يتركه يركض بعيدا وهو يمتلك خزينة أسراره كلها، قرر التخلص منه كخادمٍ مهذب ملَغطرسة سيده، فى لحظة نادرة وجده السيد جالسا بكل هدوء على أريكة مستديرة على حافة الجاكوزى الملحق بغرفة نومه، كان الرجل فى حالة استرخاء تام، يغمر جسده الماء الدافىء وأوراق بعض النباتات والأعشاب الطبية، يفكر بعمق ليس فى مدلول نهايته القريبة بل فى صفقة بدت عصية، أحس بأن هناك من يتأمله، استدار ليجد ناجى يقف على قمة رأسه ممسكا بفروته، يشير له أن يهدأ، أدار ناجى رأس السيد

sa7eralkutub.com

رامز بقوة،نظر فى عينيه المليئة بالدهشة والاستفسار، وأجاب على سؤالها المتحير: ـ ناجى (لم يكن شاهده من قبل)

ـ كنت اعرف أنك ستأتى، لم اتوقع المكان والطريقة والوقت.

قالها السيد رامز محاولا السيطرة على الموقف

ـ أنت الذى حددت وأنت الذى اخترت.

قال ناجى وهو يتأمل ملامح السيد الذى يمتلك وجها على شكل هرم مقلوب قاعدته جبهة عريضة يتدلى منه أنف مقوس كعمود إنارة، حاول السيد رامز المفاوضة بخبرة رجل أعمال محنك يفاوض على حياته، قطع ناجى ذلك بهزة بسيطة من رأسه، غمر بقوة ومرة واحدة رأسه الضخمة إلى أسفل لتغوص كثمرة قلقاس فى مياه البانيو، فقاقيع الهواء الصاعدة من أسفل حملت كثيرا من التوسلات والإغراءات التى لم يلتفت لها ناجى، بدأ السيد رامز يفلفص ويقفز، يضرب ساقه الماء بقوة إلى أن سكن جسده بين ماء الجاكوزى المحفز على تأمل عميق، شعر ناجى أنه أصبح أكثر حرية وأنه يمتلك مصيره ومساحته التى تكفى ليركض وقتما يريد لكنه لم يمتلك ترف أن يغير مهنته التى تلبسته ولبسها لسبب بسيط أن ظروفه لم تسمح له أن يفتح عيادة لممارسة جراحات التجميل أو أن يقطع التذاكر على باب السينما وهو يبتسم.

sa7eralkutub.com

القسم الثانى:

عندما تنام الموسيقى

" قد نصل إلى اليقظة التامة ونحن فى كامل غفوتنا "

sa7eralkutub.com

(13)

انتهى ناجى من كتابة رسالة أخرى إلى ملك ممهورة بتوقيع يوسف المزيف، قرر أن تكون هذه آخر رسائله ؛ ربما لأنها اجهدته كثيرًا، أو لأنه وجد أن هذه السيدة قد لا تتحمل المزيد من العبث، وصلت الرسالة إلى مكتب ساعى البريد المتورط معه داخل مظروف يحتوى أيضًا على مبلغ مالى نظير دوره.

الأمور فى منزل ملك حتى عصر هذا اليوم، وقبل أن تصلها الرسالة كانت تسير طبقًا لقوانين و معادلات وحدتها المعتادة ووفق ذلك العالم الافتراضى الذى نسجته حولها، شىء واحد قد تغير، طرف واحد جديد أُضيف إلى قوانين وعادات معادلات وحدتها.... فنجان قهوة، هفتها رغبة غامضة عصرهذا اليوم إلى فنجان من القهوة التى لم تتناولها طيلة حياتها، فتحت دولاب الصينى وتناولت أحد فناجينه فوجدت كارتًا مهملًا، أخذت وقتا من التفكير حتى تتذكر كيف تسلل هذا الكارت إلى دولاب الصينى؟ لم تتذكر، تحدثت لفترة مع طقم الصينى، تركت الكارت على المائدة، ذهبت إلى المطبخ لإعداد فنجان القهوة،عندما صبت القهوة تذكرت كلمات الضابط لها بعدما انتهى من تفتيش منزلها حينما داهمته قوات الشرطة منذ أكثر من شهرين للمرة الثانية بحثا عن ناجى، طالبها أن تتصل به فورا إذا لاحظت شيئا غريبا، كان ينظر لها فى جدية بدت على قسمات وجهه، ثم ترك لها هذا الكارت الذى يحمل اسم ورقم تليفون ضابط برتبة عميد، جلست فى الفراندة على كرسى الخيرزان أسفل قفص طيور الحب،تتحسس بشفتيها القهوة بمذاق من يتناولها لأول مرة، تذكرت فجأة حفلة عيد ميلادها! التورتة التى

sa7eralkutub.com

على شكل سفينة، القلم الذهبى الجميل الذى له شكل سفينة، بطاقة التهنئة.....

ليلة عيد ميلادها ظلت تصرخ بجنون:

ـ يوســــــــــــــف! أنت فين؟

ـ سامحتك/ هموت عليك بجد!

بحثت عنه فى كل مكان، تحت سريرها، بين أنسجة السجاجيد، خلف الستائر، فى الأدراج والأكواب فلم تجد يوسف ولم يرم قميصه عليها حتى ترتد إليها بهجتها، اعتقدت أن رسائله، تلك المزورة كانت تمهيدا لظهوره المنتظر،عاشت أياما على أمل أن يظهر ثانية مسيحها المخلص، أن يتجلى نوره على قبة قلبها المنهك وأن يباركها بزيته الطاهر، لم تتوقع أن مسيحها كان على الجانب الأخر من العالم يواصل بحثه عن أمجاده الشخصية، بعد أن أهمل رسالته ونسى شعبه، ظل حفل عيد ميلادها لغزًا يأكل قلبها إلى أن اعتبرته مجرد سحابة عابرة لحلم ساذج، حتى ظهر لها هذا الكارت الأحمر الذى كان نائما من وقتها فى دولاب الصينى، وأيقظته رغبتها الغامضة فى تناول القهوة، كانت تمسك بالفنجان الذى كان سببًا فى جلد عقلها باسئلة لا تنتهى، تجولت بين أحواض الياسمين والفل وكتل الحديد المهملة التى ظلت عبئا ثقيلا على روحها وعلى نباتات الحديقة دون أن تفكر ولو لمرة واحدة أن تتخلص منها، بدأت تسترجع بعض الوقائع التى لم تتوقف أمامها قبل ذلك ولم تحاول أن تجد لها تفسيرا:عقب السيجارة "الكنت" الذى وجده الضابط فى المخزن، صحيح أنها تدخن هذا النوع من السجائر كما قالت للضابط وقتها، لكنها لم تتوقف ساعتها لتفكر كيف جاء ذيل السيجارة هذا إلى المخزن الذى لم تقترب منه

sa7eralkutub.com

منذ عدة سنوات؟ فسرهذا الكشف بالنسبة لها سر التناقص الدائم فى مخزونها من السجائر ـ الذى كانت تحسه دون أن تلاحظه ـ مساء كل يوم، استتبع ذلك مراجعات سريعة بدأت تتداعى إلى ذاكرتها كأوراق دمينو متراصة تتهاوى واحدة فواحدة: إحساسها أن هناك دائما ظلا ما يقفز هنا وهناك، المعزوفة الموسيقية الصغيرة التى صاحبت حفل عيد ميلادها دون أن تنجح فى تحديد مصدرها، تلك "النعكشة" التى وجدت عليها دولاب ملابسها ذات يوم، آوانى الطعام التى كانت تشعر أنها منهوبة وأن البركة قدنزعت منها، البخار الخانق الذى كان يملأ الحمام عندما عادت ذات مساء من الميناء، ملاحظات بعض زبوناتها عن أن هناك حركة غامضة أو صوت ما خلف الأنترية، لم تكن وقتها تتوقف عند ذلك، كانت تواصل حديثها أوعملها، عندما وصلت إلى هذه النقطة كأن صدمة كهربائية قد لامست أوتارها فجأة.. أيكون هو الذى قتل الدكتور ماجد الحلوانى زوج صديقتها!؟حكت لها هنا فى منزلها عن حبيبها العائد منذ سنوات وعن خروجها معه وعن طلبها الطلاق من ماجد ورفضه وغطرسته القاسية، أيكون هو الذى قتل الشيخ أبو العيون؟ ومن أجل ماذا قتله؟، هنا وصل ساعى البريد وضغط جرس بوابتها، أخذت منه الرسالة على عجل، ربما لتخرجها من أجواء حيرتها، قرأت على عجل، كلام مرسل يشبه كلمات يوسف، بعدما انتهت، سرحت مع نفسها قليلا، هذه الرسائل ليست برائحة يوسف، هكذا قالت لنفسها، وهذا ما لم يتوقعه ناجى بالتأكيد، لم يتوقع أن تلك السيدة تجيد قراءة الروائح، ترى أن الروائح مستقاة من عبق الأروح، هذه ليست روح يوسف بالتأكيد

أيكون هو أيضا الذى يرسل لها هذه الرسائل؟

sa7eralkutub.com

عقلها كان يصرخ في متاهته من تلك الألغاز المتوالية عليه دون رحمة، أصابها دوار، تسندت على الدرابزين الخشبى وبدأت تصعد السلم إلى الفراندة بتثاقل، توقفت فجأة نظرت حولها، كان الظلام يحيط بالحديقة، نظرت بلهفة فى ساعتها التى تشير للسابعة والنصف، صعقت، فات وقت الغروب، لم تذهب إلى الميناء كما اعتادت منذ سنوات طويلة، ركلت السور الخشبى بقدميها فى ضيق، لاح لها خاطر مرعب..... أيكون يوسف قد عاد الأن على ظهر السفينة ولم يجدها فى انتظاره على رصيف الميناء؟!

تناولت فنجان القهوة الفارغ الذى تركته على منضدة مستديرة صغيرة وطوحت به بعيدا بحس انتقامى محض لأنه سبب حيرتها وتغيبها عن رحلتها الأبدية، كأن إضافة البن إلى خليط طقوس وحدتها صنع مركب الحيرة التى تعانيها الأن، عندما دخلت إلى منزلها وجدت نفسها تفكر مرة أخرى فى هذا الغريب الذى كان يشاركها منزلها دون أن تعلم من يكون، وهل هو بالفعل قاتل خطير هارب من الإعدام كما قال لها الضابط؟

سريعا جرت إلى هرم الجرائد المكومة بعضها فوق بعض، أخيرا وجدت فائدة لهذه الجرائد التى تأتيها كل صباح دون أن تهتم ولو لمرة أن تطالع ما فيها، بدأت بلهفة محمومة تنكش فى هذا التل المرتفع من الأوراق، راجعت الصحف حتى قبل شهرين، تبحث عن صفحة الحوادث فى كل صحيفة، لم تجد فى البداية أى إشارة هنا أو هناك، وقعت أخيرا على صحيفة تنشر خبرا مقتضبا عن هروب مجرم خطير دون أى معلومات، فى الأعداد التالية بدأت الصحف تركز على الخبر، كتبت صحيفة مانشتًا تجاريًا تحت عنوان " أسطورة القتل يمرح

sa7eralkutub.com

فى شوارع القاهرة"، قالت أن حالة من الذعر تجتاح المواطنين نتيجة هروب السفاح الخطير، وأن هذا أثر على حركة الأسواق وأصابها بحالة من الركود، فى اليوم التالى كانت أجواء الصحف أكثر سخونة، انتقلت أخبار السفاح إلى الصفحة الأولى، حيث ركزت على إقالة مدير مصلحة السجون من منصبه، طمأن وزير الداخلية الجماهير بأن السفاح سيعود للسجن خلال ساعات، فى الأيام التالية نشرت الصحف صورة السفاح، تعجبت ملك لأنها وجدت عشر صور للسفاح فى صحف متعددة، تحمل كل صورة شخصية مختلفة عن الصورة الأخرى وإن اشتركت جميعا فى قسوة الملامح وحدتها،بدت متحيرة من هذه القدرة الغريبة لدى الصحف على الفبركة، لكنها كانت تمتلك يقينا ما لا تعرف مصدره بأن ضيفها لا يمكن أن يكون واحدا من هذه الصور.

وقعت أخيرا على مانشيت فى الصفحة الأولى باللون الأحمر وزير الداخلية فى مؤتمر صحفى :

ـ القبض على السفاح بعد معركة دامية مع رجال الأمن

ـ الوزير: السفاح كان فى طريقه لقتل شخصية هامة.

بحثت ملك عن تاريخ الصحيفة : 25 فبراير، تعجبت كيف يمكن أن يكون ذلك؟

تاريخ الخبر يسبق عيد ميلادها 29 فبراير بأربعة أيام!

إذن من أقام لها هذا الاحتفال بعيد ميلادها؟

تمنت أن يكون الخبر غير صحيح، على الأقل حتى لا تجد نفسها مضطرة أن تفكر مرة أخرى فى هذا الذى اهتم بأن يحضر لها تورتة على شكل سفينة

sa7eralkutub.com

(14)

لعدة أيام ظل ناجى يقاوم رغبة فوارة بداخله، أن يكتب رسالته الأولى إلى ملك، رسالة بتوقيعه، كأن تلك الرسائل المزيفة كانت تمرينات إحماء، جعلته يكتشف أنه يمتلك لياقة كاملة لكتابة رسائل غرامية، وجد نفسه تحت سطوة شعور غامض يجلد روحه وقلبه منذ أن غارد فصول مدرسة الحب فى منزلها، شعور يشبه رقص فيلة منتشية فى غابة قلبه الموحشة، إحساس كما سيل من نار كاوية تنجرف عبر ثقوب روحه إلى داخل جروح نفسه الخاوية، فى البداية حاول أن يطرده كروح شريرة تحاول أن تتلبسه، لكن الإحساس يعاوده، يمتطى صهوة رعد يبرق فى شظاياه، فيغلبه، يتعجب كيف اشتعلت كل هذه الحرائق فى جبال الثلج التى تشبه قلبه؟ هو الذى كان يحصن قلبه ببلورات الثلج، ولم يحتضن سوى الصقيع الذى يمكّنه من أن يقترب من ضحيته بمخالب باردة، يتذكر جملة قرأها فى إحدى رسائل ملك إلى يوسف:

" الحنين إلى شىء ما أكبر مآزق الإنسانية "

يعرف إنها نابعة من قلب موجوع أحرقته التجربة.

لم يشعر أبدا بالحنين إلى شىء ما طوال حياته، سوى ذلك الحنين إلى صدر أمه حين كانت تحتضنه، كان لحضنها رائحة رغيف خبز طازج، تطاير رماد ذاكرته إلى بلدته عبر حكاية كان يسمعها بأصوات هامسة، حكاية أشعلت حرائق لأربعين سنة وتركت تراثا من التوجس، ككل الحكايات كانت البداية برائحة البساطة، شاب من عائلته أحب

sa7eralkutub.com

فتاة من عائلة أخرى، لم يكن هناك ما يمنع الزواج سوى رغبة والدها أن تتزوج من ابن عمها، لكن الحب كان قد مد جذوره وتعرش داخل قلب الشاب ثم مد فروعه ليحتضن قلب الفتاة الصغير، عبر أرض الغيطان يتواعدان، يقبل وجهها حين يتجلى على سطح الترعة فى ليلة مظلمة، ولأن الناس فى البلدة لهم ألسنة أطول من صفحات صحف الفضائح وأذن تستطيل وتتمدد كأوانى واسعة تتسع لكل ما يقال فقد زاد الغمز واللمز، حجبها والدها فى بيته كشمس مذنبة تعاقب بالظلام، استبد الغرام بالفتى وأكل عقله، لم تفلح معه تهديدات أهل الفتاة ولا نصائح أهله، كتب لها أشعارًا على جذوع النخل وحوائط القرية، رسمها على حائط الزاوية التى يصلى فيها الناس كملاك بجناحين فلعنه شيخ القرية الضرير فى خطبة الجمعة، غلت الدماء فى العروق، توقع الجميع أن تصحو البلدة على صباح برائحة البارود لكنها صحت على ما لم يخطر على خيال أحد، تأبط الولد فتاته وخرج بها من القرية إلى أماكن أكثر رحابة ليبدأ خيط من الدماء ظل يمتد ويطول عنق الجميع لمدة أربعين عامًا، ما خلفته الحكاية كان عميقًا، لم يجروء قلب مخلوق فى القرية أن يدق من بعدها، ولسنوات ممتدة أصبحت كلمة الحب نذيرًا للشؤم، ككلمة مسروقة من إنجيل الشيطان، أصبح إحساس كهذا فاكهة محرمة أو صندوق أسود ينذر من يفتحه بلعنة لا تنتهى، رماد الحكاية من وقتها سكن وعى ناجى، فلم ينجرف إلى مداعبات ابنة عمته حين عاش فى بيتها حتى وصفته بأنه جلف سقط عليهم من الأرياف، فى المدرسة لم ينحت اسم واحدة من الفتيات على خشب مقعده أوعلى باب الحمام كما تفعل كل العيال، لم تهديه فتاة وردة ليحفظها بين ضفتى كتاب الكمياء، لم يكتب رسالة غرامية لابنة الجيران ويحدفها فى طريقها،

sa7eralkutub.com

يكتفى فقط بأن يستدعيهن جميعًا إلى أحلامه الشبقية التى تنتهى سريعًا وتسقط من ذاكرته، عاش كصندوق مغلق لم تتراكم فيه هذه التجارب التى يمكن فى يوم ما أن تشكل أرضًا صالحة لزراعة نبتة الحب التى لا يمكنها أن تنبت فى أرض متحركة كأرضه، رغم ذلك عاش حكاية مبتورة لم تترك أثرًا كريح عابرة أيام دراسته الجامعية التى لم يستكملها، كان يجلس على مقهى أمام منزل فتاته بالساعات على أمل أن يراها للحظة عندما تطل لسبب أو لآخر من الشرفة، عندما حدث ذلك نظر سريعا فى الجانب الأخر، ثم قام مسرعا ذائبا فى خجله قبل أن تراه، عاتب نفسه كثيرا على تردده، قرر أن يقتحمها، ركب وراءها الأتوبيس، شق طريقا وسط زحام الركاب واقترب منها بحذر، وسوس له تردده بأن المكان غير ملائم لمثل هذه الخطبةالرومانسية التى يوشك أن يلقيها، غابت عن عينيه وسط الزحام للحظات، ارتجف، وجدها، عزم وتوكل متغلبا على تردده بأن المكان واقعى جدا ونابضبالحياة وهو ما يتناسب مع هذه العاطفة الضاربة فى جذور الواقع والإنسانية، وأن الأتوبيس والزحام ربما أكثر شاعرية من "جنينة الاسماك"، سيقولها إذن وسط الزحام البشرى وروائح العرق وصيحات الباعة الجائلين وصوت الفرامل واندفاعات الركاب المفاجئة عند كل توقف، فى وسط هذا الكرنفال المتشابك سيقول كلماته التى رتبها جيدا دون أن يضبط إيقاعه الذى فضل أن يكون تلقائيا، اقترب، ابتسم لها، بادلته ابتسامة عذبة، طقطق شعر رأسه وخرج من منابته، تجاوز سيده سمينة... الأن أمامها تماما، نظراته تعانق نظراتها، شعر بدفىء غريب يجتاحه، ربما مثل هذا الدفىء الذى يغمره الأن، اعتلى المنصة مستعدا لإلقاء خطبته الغرامية الأولى، فجأة توقف الأتوبيس، قفزمطاردوه التاريخيون من

sa7eralkutub.com

الباب الأمامى بجوار السائق، أشار أحدهم إليه بسبابته، اندفعوا نحوه بعيون حمراء كعين غول متحفز، نزل من على المنصة سريعا، قفز من الباب الخلفى مؤجلا إلقاء خطبته الغرامية إلى أجل غير مسمى لأنه لم يذهب للكلية من بعدها ولم يشاهد فتاته مرة أخرى.

* * * *

تناول ناجى كأسا من الفودكا وهو يسترجع تاريخه الرومانسى المبتور، شخر شخرة عريضة لهذا الإحساس الذى يسيطر عليه، لم يتوقع أن يصل العبث إلى هذه الدرجة، فيحيل القتلة إلى التقاعد ليتفرغوا لكتابة رسائلهم الغرامية كرجال عاطلين، هل يمكن أن تصل بهم السذاجة ليحملوا الدباديب الحمراء فى أكياس الهدايا كعرابين حب لنساء يجهلون تاريخهم؟!

يعرف أن هذا الإحساس قابل للتغول، للتمدد، قرر أن يقتله فى مهده، لكنه لم يمتلك الجرأة الكافية لفعل ذلك، قرر أن يركض بعيدا عنه، أن يعود لممارسة عمله لعله يجد فى الركض خلف ضحاياه ما يبدد هذا الحنين الجارف إلى إمرأة تمتلك تابوتا ترقد فيه رسائل غرامية ميتة، تكتفى بأن تقضى لياليها فى محاولات عابثة لشم روائح الحياة التى كانت تسكنها.

ظل ناجى يحاول دون جدوى أن يكتم فوهة بئر عميق بداخله ينفجر حنينًا إلى ملك، فنفذ عدة عمليات متتالية، ركض كالعادة خلف ضحاياه لعله ينسى أو يتناسى، لكن البئر ظل يتوهج ويرمى بجمرات تكوى أحشاء قلبه، لم يجد هذا الونس الذى كان يجده مع ضحاياه

sa7eralkutub.com

فيجعلهم رفقة طيبة لا مشاريع جثث متعفنة، بالأمس كان ينفذ عملية لقتل تاجر مواشى كبير، طلب منه الوسيط أن يعلق هذا التاجر من ساقيه على سيخ كذبيحة بناء على طلب خاص من العميل تشفيا أوانتقاما أو لإرسال رسالة ما إلى من يهمه الأمر، اقترب من ضحيته بأعصاب يسرى فيها دفء غريب لم يعتاده، لم يدرك ساعتها مصدر هذا التيار الذى يسرى فى شرايينه فيذيب الجليد وكتل الثلج المتراكمة فى أوصاله منذ سنوات طويلة كجبال راسخة، ارتبك للحظات، توتر وزاد انفعاله، كجراح مرتبك داخل غرفة العمليات كاد ناجى أن يتخذ قرارا بإلغاء العملية، أحس الضحية بوجوده، لا مجال للتراجع إذن، بصعوبة بالغة تمالك أعصابه، حاول أن يستعيد جموده، اقترب من ضحيته، سيطر عليه تماما، شل حركته، استسلم تاجر المواشى كبقرة تؤمن بمصيرها، سادت لحظات طويلة من الصمت، تصبب ناجى عرقا دافئا، شعر بوخزات عنيفة فى قلبه، جف حلقه تماما، تراخت يداه عن رقبة ضحيته الذى ينتفض بين يديه فى خضوع من رأى بارقا للنجاة، دارت به الحجرة حتى طار بعيدا، وجد نفسه معلقا بين السماء والأرض يتأرجح كبندول تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، على اليسار كانت كائنات غريبة بأجساد مشوهه تشير له بمناديل حمراء، عندما يقترب من اليمين لا يجد أحد، بل خلاء شاسع ممتد، فجأة لاح من بعيد شبح ظل يقترب، كانت ملك تخترق الخلاء بوادعتها المعتادة قادمة من الميناء فيما يبدو، ظل البندول يتأرجح، تصيح الكائنات المشوهه وتلوح بمناديلها الحمراء عندما يقترب منهم، تمنى أن تشير له ملك، أن تخطفه من على هذا البندول المصلوب عليه، مد لها يده لكنها كانت تنظر إلى الخلف ناحية الميناء، عندما عاد ناجى إلى غرفة تاجر

sa7eralkutub.com

المواشى وجد الرجل كثور يطرطش دماً فى ساحة الحلبة، قبل أن تتداعى قواه رويدا رويدا وتتراخى أعصابه ليسقط مرة واحدة كحائط متهالك، أحس ناجى بوخز فى يده التى اندفع منها الدم متدفقا ساخنا، شق ملاءة السرير وربط ببعضها جرحه، لسبب ما لم يعرفه شعر بعدم الرغبة فى تنفيذ وصية العميل بأن يعلق الرجل من ساقيه كذبيحة.

* * * *

sa7eralkutub.com

(15)

بخبرة قاتل متقاعد أدرك سلطان حالة ألا إتزان التى يمر بها ناجى، عندما سأله تهرب، اكتفى بالقول أنه يشعر أن المرة القادمة سوف يشارك ضحيته فراشه، وربما يحكى له حواديت مسلية إلى أن تأتى الشرطة، طلب منه سلطان أن يستريح قليلًا، وألا يفكر فى أى شىء آخر غير عمله، قال له: هذه المهنة لا شريك لها

سأله ناجى بغتة: هل يمكن للقتلة أن يقعوا فى العشق؟

شرد سلطان قليلا ثم قال بهدوء: نعم حين يكفون عن الركض.

نظر بعدها بعمق وهو يقول لناجى بصوت كسير:

ـ ربما هناك ستكون نهايتهم، وقد ينتهى بهم الحال إلى تربية القطط.

فى طريق عودته بدا صعبًا أن يرى تاريخه الشخصى يتهاوى أمام عينيه، يدرك أن استسلامه لهذه الحالة يعنى نهايته، الأسد الجريح يغرى فئران الغابة بأن تتحلق حوله، وإن لم تستطع أن تنهش فى لحمه اكتفت بلحظات الشماتة والتشفى، ثم ماذا يقول لضحاياه القادمين الذين ينتظرون كعملاء محتملين أن يسوق لهم موتًا هادئًا؟

هل سيقول أنه سيتقاعد كدب مريض أو كجنرال اكتشف أن كل حروبه ومعاركه لم تحقق له السلام النفسى الذى كان يبغيه؟

هل يترك ضحاياه الذين ينتظرونه بشغف بعدما أحسوا بقرب نهايتهم منغمسين فى أدوراهم الدرامية المرسومة كأبطال من ورق أم

sa7eralkutub.com

يجب عليه أن يتدخل كالعادة ويوقف التصوير فى اللحظات الأخيرة لينقذ كل أولئك البائسين من هذا التوتر الدرامى القادم الذى لا تحتمله أعصابهم المرهقة، كان يستمع إليهم يصرخون على أرضية البالتوه وأمام عدسات التصوير ومصابيح الإضاءة، يستعطفونه أن يقتلهم ليخطفهم من سياقهم الدرامى الممل، لكنه فضل أن يكتب رسالة إلى ملك، نعم سيكتب رسالة إلى ملك لأنه لم يستطع أن يوقف بداخله هذا الحنين الجارف إليها.

سحر الكتب
sa7eralkutub.com

* * * *

اللحظات الفارقة فى تاريخنا الشخص تبدأ دائما بأشياء تافهة، فنجان القهوة فى دوالب الصينى ألقى بكرة ثقيلة فى بحر راكد لا تسكنه سوى جبال من طحالب متعفنة، فارتج البحر على أمل أن يجرى ويتخلص من أكوام ترقد على جسده منذ سنوات، فكرت ملك كثيرا فى ضيفها الذى شاركها منزلها وطعامها وأغراضها دون أن تعلم، أكان هنا أحد يشاركها وحدتها!؟

هل مازال يأتى إلى بيتها دون أن تعلم؟، هل سيأتى ثانية؟ هل سيقتل ثانية من أجلها أو من أجل فتيات مدرسة الحب؟

هذا الكشف المثير الذى تسبب فيه فنجانها المِلهم خطفها من واقعها الممل والمعتاد لبعض الوقت، لكنه أكثر من ذلك فتح لها ثقبا فى شراعات الحياة الموصدة فى وجهها.

قلبت ملك البيت رأسا على عقب، تبحث عن ضيفها فى كل ركن من أركانه، عرفت أنه كان يتخفى خلف ظهر ثلاجتها الأمريكية الضخمة

www.sa7eralkutub.com

sa7eralkutub.com

التى كان مالك بيه يمتدح دائما تبريدها منذ أن اشتراها من تاجر استطاع أن يهربها من الميناء، عرفت ذلك من تل منظم لأعقاب سجائرها الكنت التى وجدتها خلفها، تمالكت إرادتها ودخلت مخزن الخردة أو نفايات مالك بيه بحذر وبأمل كبير أن تجده خلف هذه البراميل المتراصة، لكنها لم تجد سوى بعض أكواب الشاى الفارغة ومزيدًا من أعقاب سجائرها ورائحة مالك بيه، بدأت فى رسم صورة له خطتها بفرشاة خيالها، بعد أن طردت من ذاكرتها ما شاهدته فى الصحف من صور متناقضة، تخيلته كبحارة له وجه بلون البحر، سيطر عليها يقين قوى لا تعرف مصدره بأنه سيأتى ذات يوم، نفس هذا اليقين الذى تملكها بعودة يوسف، تهب من نومها إذا سمعت أصوت بدت لها غير عادية، تراقب بحذر حتى تكتشف أنه مجرد هواء لاعين يداعب خيالها أو قطة عابثة تسللت إلى مطبخها، حرصت أن تترك نافذة المطبخ مفتوحة وأن تترك له بعضا من طعامها الذى تناولته على الغذاء، كانت تعد كل شىء فى انتظار قدومه الوشيك، تعد كوبا من الشاى وتضع عليه غطاءً صغيرا وتتركه بجوار الطعام، تترك كل أنوار المنزل مضاءة حتى لا يتعثر، تركت علبة من السجائر فى المطبخ وأخرى فى المخزن وصابونة جديدة فى الحمام، إذ ربما يريد أن يستحم بعد رحلته إليها التى لا تعرف من أين سيبدأها، عندما تعود من الميناء الذى بدت تشعر أنه عادة ثقيلة لا تعرف كيف يمكنها أن تتخلص منها، تدخل إلى المطبخ فتجد كل شىء على حاله لم يمسسه أحد، تبتسم تلك الابتسامة الشاحبة التى تجلل وجوهنا عند الخيبة دائما، تسأل نفسها: لماذا كل رجالها يرحلون ويتركونها وحيدة تضاجع وحدتها كل ليلة؟!

sa7eralkutub.com

رغم ذلك لا تنسى أن تعد العشاء وكوبا من اللبن للضيف المحتمل.

هذا الصباح كانت تشرب فنجان القهوة في حديقة منزلها على الكرسى الخيرزان، عندما جاء لها البوسطجى يرن الجرس بلهفة متزايدة ويضرب بيديه البوابة الحديدية فى نفس الوقت وبذات اللهفة، عندما فتحت البوابة متعجبة بدا الرجل كمن يحمل بشرى استثنائية يعرف قيمتها ويطمع فى مقابل جيد يتوقع أن يحصل عليه

ـ رسالة يا مدام ملك، أه رسالة، لم تحضرى للمكتب منذ فترة

أدركت أنها لم تذهب للمكتب منذ شهرين لتسأل عن رسائل قادمة من إيطاليا

ـ رسالة!

ـ أه ومن نابولى

ـ نابولى!

هذه المرة كانت الرسالة بتوقيع يوسف، رسالة ليست كتلك الرسائل المزورة، لها رائحته التى تعرفها جيدا ومازالت تحتفظ بها فى مخزن حواسها، عندما بدأت تقرأ تأكدت أنها ليوسف، عندما انتهت لم تستطع أن تلملم نفسها حين زُلزِلتْ الأرضُ من تحتها فهوت إلى فراغ سحيق ليس له نهاية

* * * *

sa7eralkutub.com

فى نفس هذا الوقت تقريبا كان ناجى يكتب رسالته الغرامية الأولى التى لم يتوقع أبدا أن يكتبها، أعد ورقا ملونا مزينا بقلوب صغيرة على حوافه ومجموعة كبيرة من الأقلام تكفى لكتابة مجلد ضخم، لكنه لم يعرف كيف يبدأ، شعر أن الرسائل المزيفة كانت أهون كثيرًا، ربما لأن الصدق يصيبنا أكثر بالإجهاد، تملكه فى البداية إحساس ساخر بأنه مراهق كبير، تمنى أن يكون هناك كتاب تعليمى يعلم القتلة كيف يمكنهم أن يكتبوا رسالة غرامية فى ثلاث ساعات، احتاج الأمر جلسات كثيرة، خلالها كان يطوف أركان شقته، يقف فى النافذة، يضع جسده تحت الماء البارد، يضحك ويسخر من نفسه حين ينظر فى المرآة، توصل إلى أن القتل لا يحتاج كل هذا العناء الذى تحتاجه كتابة رسالة لمن نحب، يحتاج القتل إلى أعصاب باردة لا تجدى أبدًا فى مثل هذه الأوقات حين نجلس على الورق، مطاردة ضحية أقل عناءً من مطاردة الحروف، الضحايا لا يراوغون حين يبادرهم القتلة، الحروف والكلمات تروغ وتنزلق، لا يملك القتلة هذا النفس الطويل فى ملاحقة الحروف وترصيصها حتى تصير كلمات تقف على الورق بأقدامها لتعبر عن أحاسيس كامنة، تناول مزيدًا من القهوة والبيرة، أشعل النيران فى أكوام كبيرة من السجائر، مزق أكوام من الورق، بعد عدة أيام من المحاولة أصبح قادرا على أن يخط أول حروف رسالته.

* * * *

sa7eralkutub.com

(16)

حين قرأت ملك رسالة يوسف التى ضلت طريقها لسنوات طويلة، اشتعلت حرائقها من جديد، تساقطت سوائل منصهرة من عينيها لم تتوقف لليال متصلة، لساعات طويلة جلست غير قادرة على الحركة بعدما طوت المظروف اللعين، يضرب رأسها رعد قوى عندما تلمع ذاكرتها بإحدى جمل الرسالة، حكى لها يوسف عن جبل الأحلام الذى انهار فى نابولى أمام عينيه حجرا حجرا، عن غسيل الصحون الذى غسل كل ما تعلمه عن الصحافة، حكى لها كيف تزوج من إيطالية ليدبر أمور إقامته بعدما تشاجر مع صاحب المطعم الذى يعمل به، ففقد العمل ومكان النوم، عن أنه قد نساها فى غمرة كل هذه الأشياء، وأن زوجته قد مزقت أخر صورة لها كان يحتفظ بها، عن ابنته من زوجته الإيطالية التى تشبهها تماما، عن كفاحه وعناده حتى أصبح يمتلك محلا ناجحا للبيتزا على خليج نابولى عوضه عن فشله المهنى فى الصحافه، وكيف انهار كل ذلك عندما انفصلت عنه زوجته وأخذت ابنته والمحل وكل شىء، ثم كيف قتلها فى النهاية؟

قال: إنه اكتشف أن القتل أسهل من غسل الصحون، فقط يحتاج القتل إلى بعض الغضب كوقود يشعل ما بداخلك من كراهية.

اعتذر لها عن كل ما سببه لها من ألم، عن أنه جعلها تتصوره نبيا وفارسا، بينما كان مجرد عبد مخلص لأنانيته المفرطة، قال إنه لن يبرر لحقارته كى تسامحه، طلب فقط أن تسامحه بتلك الروح الرحبة الصافية التى تمتلكها ؛لأن هذا هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يخفف من

sa7eralkutub.com

آلام روحه، وألا تنتظره بعد ذلك عند الميناء كما تعودت ؛ لأنه سيعيش سنوات طويلة خلف القضبان، طلب منها أيضا أن تراسله وأن ترد على رسائله.

• عند الغروب وجدت ملك نفسها تسير بإتجاه الميناء كسفينة دائخة فقدت الأمل فى عودة قبطانها، جلست على الرصيف وبكت بحرقة، لم يستوعب عقلها أن فارسها قد تحول إلى مجرد مسخ مشوه مصلوب على جذوع الخطيئة والقتل، بسهولة بررت له لماذا قتل، لكنها لم تستطع أبدا أن تبرر كيف خان؟!

فى أثناء عودتها اتخذت قرارها المصيرى بعدم العودة إلى الميناء مرة أخرى، لم تكن تعرف أنها ستجد نفسها مضطرة أن تعود إليه قريبا.

* * * *

بعد خمسة أيام من نكبتها جأتها رسالة برائحة مختلفة، اعتبرتها تعويضا من السماء لخسارتها الفادحة، حين فضت المظروف لم تكن تعرف أو تتوقع أنها من ضيفها الراحل الذى تنتظره، لكنها ميزت رائحتها المختلفة، كانت الرسالة من عشرين صفحة، وهو رقم لم يعتقد ناجى أبدا حين بدأ الكتابة أنه سيصل إليه، لكنه عندما بدأ يكتب، شعربمتعة لم يُحَصِلها من قبل، حتى أنه تمنى ألا ينتهى، "اعتذرعما سببه من مضايقات أو ما سببه وجوده من إزعاج رجال الأمن لها، تأسف كثيرا عن فضوله وتلصصه على حياتها الخاصة ونعكشته غير الائقة فى رسائلها، عن تدخله فى بعض الأمور التى تخص زبوناتها،

sa7eralkutub.com

قال إنه لا يعرف لماذا يراسلها لكنه يدرك أنه حتمى ولا فكاك منه، لأن مقاومته لذلك الشيء انتهت بالفشل، ذكر أنه يشعر بحنين جارف وبلسعة قوية فى قلبه منذ أن ترك منزلها،وحتى الأن لا يمكنه تصديق ذلك، ولم يستوعب عقله حتى الأن أن قلبه يمكنه أن يكون مَعينا لمثل تلك الأشياء اللذيذة والغامضة التى تسكنه"

كما تعلم منها أراد ناجى أن يسقى رسالته بعطر الحب الخاص به، ذهب إلى أحد كبار صناع العطور فى منطقة الأزهر، طلب منه أن يصنع له عطرا خاصا يعبر عن رجل يعشق الحياة، رجل يحمل قلبا صلدا اشتعلت فيه الحرائق، نظر له الرجل الخبير نظرة إعجاب، قال: إنه يحترم الرجل الذى يبحث عن عطره لأن الإنسان مجرد رائحة، طلب منه أن يمهله ثلاث ليال، بعدها كان العطر فى قارورة معدنية على هيئة بجعة راقصة، مزيجًا من خشب البندق والفانليا والسوسن الفلورنسى والسمسم والجريبفروت والنعناع والتفاح والخوخ بالإضافة إلى الليمون وبعض الروائح الشرقية الحريفة، تشممت ملك العطر لأول مرة فشعرت بروحها تحلق فى أجواء عجائبية، نبتت لها أجنحة حملتها فى الفضاء خفيفة رغم أثقالها الكثيرة، بعدها كانت قادرة على أن تستنشق عطر الرسائل وهى فى منزلها قبل أن يطرق ساعى البريد بوابتها الحديدية ببضع دقائق متسائلا عن تلك الرائحة التى جعلت كل موظفى المكتب ينتظرون رسائلها بلهفة.

• تعددت رسائل ناجى إلى ملك، كل يوم يكتب رسالة جديدة، كأنه لا يريد أن يفرغ من متعته، القتلة عندما يكتبون خطابات غرامية

sa7eralkutub.com

يكتبون للنفس الأخير؛ لأنهم يكتبون بمثل هذا الصدق الذى يقتلون به، وربما لأنهم دائما يعتقدون أنها رسالتهم الأخيرة.

فى رسائلة التالية حكى لها " بأنه لم يتقدم بأوراقه للقبول فى كلية القتلة، عن أمنيته التى لم تتحقق فى أن يكون قبطانا يجوب المدن بسفينة لا تغرق. عن ضحاياه وأوجاعهم، قال إنهم بائسون لكنهم أصدقاء طيبون لا يشعر معهم بالوحدة ولا يشعرون معه بالخوف، عن أنه ظل طفلا بائسا لم يعلمه والده شيئا يُذكر سوى أن يركض.

قال: إنه لم يهبط إلى هذا العالم من بطن أمه وفى يديه كلاشينكوف أوسكين، وأن أمه لم تكن تحكى له سوى حكايات عن رجل طيب يحلب الغنم لأولاده ليشربوه قبل النوم، كما أنه لم يسمح لأحد من مصاصى الدماء أن يغرز أنيابه فى رقبته ذات ليلة، ولم يداعب أحد فتحة شرجه بقضيبه وهو صغير.

أضاف ناجى : قتلت أول مرة حتى أستطيع أن أضع مؤخرتى على قاعدة الحمام بإطمئنان، كنت أريد أن أتأكد أن من يسير خلفى هو مجرد ظلى وليس شخصًا يريد قتلى، عندما فعلتها أول مرة وجدت نفسى بين المطاريد فى الجبال، كان المطاريد يخشونى بعد أن علموا بالمجزرة الكبرى التى فعلتها والتى راح ضحيتها ثلاثة عشر شخصا من عائلة واحدة، سقت لهم الموت جميعا فى ليلة مقمرة، عشت عاما كاملا بين المطاريد كسيد أو زعيم مُلهِم، أشعر أنى غريب عنهم و يشعرون أننى لست مثلهم، ربما لأنى كنت فى العشرين، ربما لأنى أرتدى الجينز مع تسريحة شعر كنت وقتها مهووسا بها كتقليعة شاهدتها فى أحد أفلام التسعينات، ربما لأنهم أول مرة يشاهدون قاتلا يمارس القتل، ثم

sa7eralkutub.com

يخلد إلى كمنجته، يعزف لحن خلوده، كانوا ينظرون لى بتوجس حين أرسل أحدهم إلى المدينة ليشترى لى كتابا أو ساندوتش هامبورجر مع شرائح البطاطس، لكنهم ظلوا منكمشين فى أنفسهم أمامى يتجنبون إثارة غضبى، سأذكر لك سرًا خطيرًا، لم أُبُحْ به لأحد من قبل، ربما لأننى لم أجد أحد أبوح له بالأسرار: كنت أكاد أبول على نفسى عندما يغضب أحدهم ويزوم كذئب جائع، كنت فقط اتظاهر بالقوة أمامهم ليقبلونى واحدهم منهم، وعندما يسألنى أحدهم عن المجزرة وكيف قتلت كل هؤلاء وحدى وفى ليلة واحدة؟!، كنت اتعجب وربما كنت اشعر بصدمة قاسية..

ـ أحقا قتلت كل هؤلاء؟!

بعدها وجدت أننى يجب أن أصدق ذلك حتى استطيع أن اتعامل مع وضعى الاجتماعى الجديد كمطارد يعيش بين المطاريد، وكأسطورة تسببت فى إقالة مدير الأمن، عندما صدقت ذلك وجدت السيد رامز يرسل لى ليعرض على العمل معه، ليس كسكرتير خاص بالطبع ولكن كقاتل أجير.

بعدها اكتشفت أننا جميعا قتلة بشكل أو بأخر، حتى شركات الأدوية ربما تتسبب فى القتل، قد تعتقدين أننى أبالغ كثيرًا، لكننى أرى أن كل تاريخ الإنسانية يمكن اختصاره فى الفعل (قتل).

حكى لها عن رعبه من أن يموت ذات يوم فى مكان مظلم، عن شبقه الذى لا ينتهى فى الهروب كل مرة من السجن، قال إنه يتمنى يوما أن ينام فى حضن إمرأة له رائحة رغيف خبز مثل حضن أمه، ذكر أنه

sa7eralkutub.com

ضاجع عشرات النساء، لكنه الأن يعشق جسدا لم يمسسه، ولم يرأبدا جسداكجسدها، ينبت أسفل نهديه عنقود عنب أحمر، اعتذر بأنه لم يقصد أن يتلصص على جسدها، لكن ذلك لو حدث ثانية فلن يستطيع أن يحرم روحه من حقها فى الرؤية والكشف أو يمنع جسده عن حقه الطبيعى فى البهجة، قال إنه لا يعلم إن كان من حقه أن يطلب أن تحتفظ برسائله فى صندوقها الذهبى؟ لكنه أوضح أن من حقها أن تلقيها فى المكان الائق بها دون اهتمام، طلب منها ألا تراسله لأنه لا يمتلك عنوانا ثابتا."

بعدما تنتهى ملك من قراءة الرسائل، تكتب ردا وتعطره بعطر الحب، تضع الرسالتين فى صندوقها الذهبى كما طلب منها، تنتظر بعدها رسالة جديدة، تندهش من هذا القاتل الذى أصبح عاشقا وهذا العاشق الذى بات قاتلا!

وتتعجب أكثر من قدرتها التى لا تنتهى على انتظار الرسائل من رجال غائبين.!!

* * * *

sa7eralkutub.com

(17)

للحب زخم، لا يأتى الحب وحيدًا، تأتى معه عصافير مارقة، هربت من أبواب الجنة، لم تجد فى الجنة حبًا بروح إنسانية، وجدت حبًا معلبًا يستحقه الصالحون، تنقر قلوب المحبين بمناقيرها المقوسة فى وداعة، فتنفلق إلى محيط بفضاء شاسع يفتح أبوابه لكل البحار والأنهار لتمرق بسلام دون أن تخشى أن يجلدها المحيط بأمواجه كما كان يفعل دائما، تمخر العصافير بريشها مياه المحيط، تدلق مسحوق وداعتها فى فمه، تتراقص الأسماك الصغيرة على ظهر الحوت الأزرق، يخلع القرش أنيابه التى بين فكيه الواسعين ويقضى وقت فراغه فى قراءة حكايات مسلية لأسماك مازالت فى عمر الربيع، حين تنقر عصافير الحب قلبك، تعيد ترتيب ذاكرتك المشوشة من جديد، تزيل كل من مر دون أن يترك أثرًا، تترك فقط هؤلاء الذين لهم روح تشبه روحك، هؤلاء الذين لهم قلوب ملضومة عبر خيط حنين ممتد فى حناياك.

فى زخم حبه تذكر ناجى أن له أهلا وناسا ومسقط رأس، له أم لا يعرف إن كانت مازالت قادرة على صنع صينية بطاطس مكبسة بقطع اللحم أم أنها باتت غير مهيأة لصنع ذلك فى قبرها، له سبع بنات كان أصغرهم لا يعرف هل تجرأت إحداهن وسمت ولدا لها باسمه؟ أم خشين أن تصيبهم لعنته؟ انتابه هذا الحنين الذى يداهم دائما هؤلاء الرحالة والجوالين وهم على ظهر سفنهم يجوبون الجزائر والموانىء، حنين إلى المركز، إلى نقطة الانطلاق الأولى، إلى الأرض الثابتة التى خرجوا منها والتى كانت قادرة على أن تحملهم على ظهرها ليسيروا على مهل، دون أن يضطروا إلى النظر كل حين إلى عقارب الساعة

sa7eralkutub.com

انتظارا لميعاد الرحيل، حنين إلى بشرلم تستطع الذاكرة أن تمحو ملامحهم ولا اسمائهم، لأن ملامحهم ليست كملامح هؤلاء العابرين الذين يتزودون منهم بالمتاع على أرصفة المدن والموانىء، لم يستطع ناجى أن يقاوم هذا الحنين فقرر أن يذهب إلى أرضه الثابتة، إلى مركزه، حيث قبر أبيه، عاد يتشمم منابت رائحته، متنكرا فى هيئة رجل أعمال ينوى شراء أرض زراعية ومنزل، استعان بأحد السماسرة وطلب منه أن يكون ذلك سرا، ذهب إلى منزلهم القديم وجده أنقاضا جاثية تشهد على كراهية تُـلـَقِح ذاتها، دارهم العتيقة استحالت إلى خرابة تعشعش فيها الكلاب، تذكر السور اللعين الذى كان بداية لحرب طاحنة ورحلة لتعاسته التى لم تنته، الحروب دائما هكذا تبدأ بسبب اختراق أسوار وتنتهى ببناء أسوار، تذكر سور منزل ملك، اندهش للمفارقة، حياته دائمًا تبدأ من عند الأسوار، كأن الأسوار هى التى تصيغ تاريخ البشر، لماذا يبنى الناس الأسوار إذن؟ لكى لا يتلصص الأخرون عليهم وهم يمارسون قبحهم، أم لأنهم خلف تلك الأسوار يستطيعون أن يخلعوا أقنعتهم ليمارسوا حياتهم بوجه إنسانى؟

بمبلغ كبير استطاع السمسار أن يشترى المنزل أو ما تبقى منه بعد أن ظل لسنوات طويلة مهجورا ومحلا للنزاعات، علم ناجى من السمسار أن أمه لن تستطيع أن تصنع له مرة أخرى صينية بطاطس مكدسة باللحم، وأن أربعة برتقالات فقط من البرتقالات السبع الذى كان صابع موز وحيدًا لهن مازلن قادرات على السير على ظهر أرض قريتهم بقامات مفرودة دون إضطرار إلى الانحناء خوفًا من الاصطدام بسقف القبر.

sa7eralkutub.com

زار ناجى قبر أبيه ليلا، انتابه شك عظيم أن يكون الرجل بالداخل، إذ ربما قد ركض إلى قبور بعيدة، قرأ له فاتحة ودعاءً متعجلا، غادر سريعًا بسبب خوفه الدائم من الظلام، لم يتجرأ على أن يسأل على قبر أمه فقرأ لها الفاتحة عندما لاحت له أنوار القرية، لم يشأ أن يسبب قلقا للبرتقالات الثلاث، ففضل عدم زيارتهن، ترك لهن رسالة مع السمسار، بالإضافة لعقد المنزل والأرض التى اشتراها وشيكا بمبلغ كبير موصيًا ببناء المنزل من جديد، ركب بعدها سيارته وركض مرة أخرى بعيدا عن المركز بعد أن حقق حلما مركونا منذ زمن بلا عناية فى خزانة خياله.

فى طريق عودته تعجب، حين مسه مس الحب وسكنه شرر العشق زار قريته لأول مرة، وهو ما لم يجروء عليه حين كان يرشق الموت كل ليلة للموعودين، أكما علمه القتل سيعلمه الحب؟

علمه القتل عشق الحياة، الحياة التى غَـلقت أبوابها فى وجهه، لا لتقول له هئت لك، بل لتجعله مطاردا مغضوبا عليه، يحوم دائما حولها شغوفا بما وراء الأبواب والأسوار العالية،وكلما نجح فى أن يسترق السمع أو يبصر عبر الحجب والنوافذ، أسرعت فى إغلاق منافذها وشد ستائرها أمام عينيه لتنبذه فى العراء المظلم،

فماذا سيعلمه العشق إذن؟

عاد ناجى سريعًا من مركزه إلى أرضه المتحركة التى لا تتحمله فوق ظهرها الملول، إلى رفقة صالحة من جثث وامرأة وحيدة لا يستطيع أن يتحمل عبء أن يقابلها، عاد ناجى ليكتب خطابات غرامه.

sa7eralkutub.com

(18)

كل صباح تذهب ملك إلى مكتب البريد تسأل عن رسائل جديدة بعد أن توقف بث الرسائل مدة أسبوع كامل خلال رحلة ناجى إلى مركزه، عاشت خلاله بأعصاب ملتهبة وروح خاوية، عبر لها الموظفون فى مكتب البريد عن حزنهم الكبير نتيجة توقف الرسائل ؛ لأنهم اعتادوا استنشاق عطرها الرائع كل صباح بما يثيره داخلهم من بهجة، قالوا إنه عطر يغسل الروح ويعطى لجدران المكتب لونًا قرمزيًا غير ألوانها الكابية الثقيلة على الروح كلون الزنازين، ويجعلهم يمارسون العمل داخل المكتب وكأنهم يمارسون هواياتهم المفضلة، حتى أن نسبة غياب الموظفين قلت كثيرا عن المعتاد، فى المساء تعيد ملك قراءة الرسائل السابقة قبل أن تنام، ترقص رقصة الوحدة على موسيقى صامتة على أمل أن يداعب العطر خلايها المتأججة فى الصباح.

هذا الصباح استقبلت رسالة اعتذر فيها ناجى عن توقفه عن البث، قال إنه لن يفعل ذلك مرة ثانية ؛ لأنه عاش أسبوعا كاملا بروح كادت أن تتآكل من الصدأ، شعر خلاله أنه يكتم بداخله بئرًا فياضًا أوشك أن ينفجر لو تأخر عن رفع غطاءه ليوم آخر، حدثها عن رحلته إلى أرضه ومركزه، قال لها إنها الشخص الوحيد الذى يعرفه الأن على ظهر هذا العالم، ودونها سيكون مبتورًا كجذع شجرة مغروس فى الهواء، وأنها الوحيدة التى يمكن أن تثبت أنه مازال حيًا وأنه مر خلال هذا العالم، تمنى أن يعيش ما تبقى من حياته فى منزلها بعد أن يهدم سوره المتهالك ويقيم سورا عاليا يعيشان خلفه فى عالم جديد بكر بعيدا عن ضجيج القارات القديمة وخريطتها المزدحمة، وعدها أنه سيزورها فى يوم ما

sa7eralkutub.com

عندما تسمح ظروفه بذلك، وإذا لم يزعجها أن تستضيف فى منزلها شخصا يفضل أن يكون شبحا يقفز من نافذة مطبخها دون أن تراه لأن فؤاده لن يتحمل أكثر من ذلك فى هذا الوقت.

استقبلت فى تلك الليلة حلما غامضا، وجدت نفسها تسير فى شارع البحر ناحية الميناء تمسك صندوق الرسائل، تمتزج روائح الرسائل لتصنع عطرا جديدا خلابا، عطرًا بمذاقها، فيه من ناجى ومن يوسف، يتصاعد عبقه ويفوح فى كل الأركان، ترتدى السماء جونلتها الحمراء التى اعتادت أن ترتديها فى مثل هذا الوقت بعد أن غزلتها الشمس لها من خيوط أشعتها، رائحة العطر المسيطرة جالت كل أنحاء المدينة، تسللت من النوافذ المغلقة وعبر الأبواب الموصدة، اخترقت الجدران والبنايات، مس سحرها الرجال والنساء والأطفال والحيوانات والطيور، ضربت حتى القلوب الغلف، هيجت أفئدة العاشقين، أشعلت حرائق قد انطفأت، أعادت حكى قصص الحب من منظور جديد، لينتصر العاشقون فى نهاية الحكاية دون أن يكونوا أبطالا بائسين، خرج الجميع من بيوتهم يتنسمون تلك الرائحة، ترك أهالى المدينة أعمالهم، هرول أصحاب المحلات ناسين أن يغلقوا أبوابها، الكل يتحسس مصدر الرائحة، ماج شارع البحر بالبشر والقطط والكلاب والطيور المحلقة، اصطف الناس بعقول مسلوبة على الجانبين صامتين، جثت القطط والكلاب على الأرض وبسطت أقدامها فى خضوع، سكنت حركة الطيور على الشجر، وقفت ملك على رصيف الميناء، توقفت السفن العابرة بعد أن ضربتها الرائحة، اطلقت صفافير مبهجة ولوح البحارة من بعيد بقباعاتهم فى نشوة، وجدت نفسها تنتظر، تترقب كالعادة، تودعها الشمس بعين باكية، تخلع السماء جونلتها الحمراء

sa7eralkutub.com

وترتدى وشاحا بلون الليل، فتعود منكسرة تحمل صندوقها، يودعها الجميع بحسرة، لكنهم ينتظرون عودتها فى اليوم التالى عندما تتناول السماء جونلتها الحمراء من دولاب ملابسها.عندما استيقظت لم تشأ أن تفكر كثيرا فى مضمون الحلم أو أن تجد تفسيرا له، قالت: التفسير يفسد الأحلام السعيدة ويفتتها من سياقها، يجرجرها من عالم الخيال والرمز إلى أرض الواقع والحقيقة، يكفى الحلم أنه يصنع منا أبطالا خارقين ويمنحنا حق الفرجة على أنفسنا مجانا.

تناولت فنجان القهوة المفضل لديها، ذهبت إلى المطبخ لتعد قهوتها، صعقتها المفاجأة، وجدت صينية الطعام خالية، كانت قد أعدت كعادتها قبل أن تنام وجبة من فول بالزبدة البيضاء وبيض مسلوق ومربى من التوت وكوبا من الحليب، وضعت الطعام بجوار رسالة ترحيب بضيفها المنتظر، لم تتمالك نفسها من الفرح، قفز قلبها قفزات سريعة متوالية ضاربا رقمًا قياسيًا جديدًا، تطلعت فى المكان بحذر وجدت رسالة معلقة على باب الثلاجة:

(اليوم عرفت أشياء كثيرة كنت اتمنى معرفتها، ولا اعلم إن كانت روحى يمكنها أن تتحمل ذلك، تلقيت ردا شافيا على كل رسائلى لأنى بالتأكيد لم آتى إلى هنا لتناول طعامك الذى له نكهة روحك بل جئت لأتنسمك، أرجوك لا تحاولى أن تبحثى عنى، لم يحن اللقاء بعد).

أخذت ترتشف الرسالة مرة ثانية بتأن وهى تجلس على الكرسى الخيزان أسفل قفص طيور الحب، لم تتفهم فى البداية رغبته فى عدم الظهور واللقاء وإن احترمت ذلك، ناجى كان يرى أن وحوش البرية لا يمكنها أن ترتدى أحذية وتسير فى الشوارع بين الناس لتلقى عليهم

sa7eralkutub.com

تحية الصباح مرة واحدة، تحتاج الوحوش لفترة من الوقت حتى تصبح وجوه الناس مألوفة لها، بدورها لم تحاول ملك أن تبحث عنه، يكفيها أن يشاركها وحدتها بمجرد أنفاسه، من نافذة المخزن المطلة على الحديقة كان ناجى يتأملها بشغف، يتمنى أن يمحو تاريخه وتاريخها، ذاكرته وذاكرتها ويعودان إلى السجل الفارغ، سيجلسان فى هذه الحديقة ذات مساء تحت قفص طيور الحب يشكلان على مهل عالما جديدا على مقاسهما بغض النظر عن وجهة نظر القوى العظمى فى ذلك، داعب ناجى كمنجته، كأنما يطلب منها أن تسعفه وأن تكون على قدر اللحظة، دق على أوتار روحه دون إعداد مسبق ليعزف مقطوعة من وحى لحظتهما، مقطوعة تسمعها أذن الكون لأول مرة، ينظر إلى نوتة موسيقية مكتوبة بحروف شفافة على جدارية روحه، خرجت الموسيقى سائلة بلون البحر، تتسرب من خلال صندوق الكمنجة الخشبى فتسيدت الكون وسيطرت على حركة ضجيجه، ملأت أصواتها فناء الحديقة وأخذت طريقها إلى أحواض الياسمين والريحان ووصلت إلى جبلاية الصبار الذى شرب منها دون أن يرتوى، طيور الحب كانت تعيد إنتاج الموسيقى برؤيتها الخاصة، واجتهدت لتحتفظ بنسخة منها فى ذاكرتها، لامست الموسيقى أقدام ملك وهى جالسة فسرت داخلها قشعريرة من خدر، ثم تسللت عبر شراينها إلى داخلها لتعيد تأويلها من جديد، حملتها إلى أعلى خفيفة كنغم، سرحت بها الموسيقى بعيدًا، إلى أماكن لم تذهبها قط، ثم عادت بها غافية وأودعتها على كرسى الحديقة الخيرزان، بدت له وهى نائمة فى صفاء كربة مسكينة فى متحف قديم لا يتلمسها أو يعرف سطوتها إلا هؤلاء المرهقون الذين

sa7eralkutub.com

يتخففون من أثقالهم على بابها دون أن يجدوا صندوق النزور لانها لا تقبل العطايا،

قال إنه سيسمى مقطوعته "عندما تنام الموسيقى" لكنه غفا هو الآخر فى وقفته كما غفت ملك، استمرت الموسيقى تتسرب بعيون نائمة من كمنجته، ذهب كلاهما إلى منطقة حلمه الخاص، كانت ملك فى مشهد من فيلم قديم، حفلة تنكرية تغنى فيها ليلى مراد وهى ترقص مع أنور وجدى، الكل يرتدى أقنعة سوداء تحجب ملامحه، رفضت أن ترتدى قناعا واكتفت بملابس طائر حزين له أجنحة بيضاء، لم يكن ناجى الذى لا تعرف ملامحه موجودًا، لم يتعود على أحلام مبهجة من قبل، لذا كان يركض وحيدا خلال حلمه فى مشهد بلا ديكورات أو حوائط، استدعته ملك إلى مشهدها بقوة روحها، اعطت له العنوان بالكامل، كان الطريق يتوه منه، تصرخ فيه انعطف يمينا...هناك عند هذه القبة السماوية الزرقاء ستسمع صوت ليلى مراد، عندما وصل ترك أسماله على الباب، دخل الحفل بزى قبطان يضع قناعا أسودا على وجهه، استقبلته ملك، عرفته من خلال رائحة عطره، قدمت له كأسا من نبيذها المعتق لينعش قلبه، طلبها للرقص على أغنية ليلى مراد، نزعت قناعه، رأت ملامحه للمرة الأولى، تحسستها بيديها، اقترب منها، يزلزله شوق على شوق، احتضنها بين يديه وراحا فى عناق طويل بينما كانت السيدة ليلى مراد تعيد مقطوعتها كلما انتهت، ربما كى لا تزعجهما، وربما حتى لا ينقطع الحلم.

sa7eralkutub.com

(19)

أعدت ملك صينية بطاطس مكدسة بقطع من لحم البتلو وتركتها فى المطبخ، حرصت تماما ألا تقترب من المطبخ، تناول ناجى طعامه بشهية مفتوحة، كان يأكل ويسترجع تفاصيل الحلم الذى عاشه منذ قليل، أعد كوبا من الشاى وهو ينظر من النافذة، كان الوقت عصرا عندما سمع جرس البوابة الحديدية، ظهرت ملك بعدها فى بلوزة زرقاء فضفاضة على بنطال أبيض من الجينز، تسبقها خصلات شعرها المتطاير، دخلت فتاة شابة فى العشرينات من عمرها، تناولت بعض العبارات مع ملك، رحبت بها ودلفا إلى الداخل، أخذ ناجى موقعه القديم فى الصالة خلف إحدى قطع الأنتريه، بدأت ملك تعقص شعر الفتاة حينما أمسكت الفتاة يدها بلطف، فى خجل قالت لها: ـ مدام ملك جئت للحديث معك، دلتنى صاحبة مخلصة إليك، قالت لى: مدام ملك يمكنها أن تتفهمك

نظرت لها ملك مبتسمة، جذبتها من يديها وأجلستها بجوارها على كنبة صالونها البلجيكى المذهب، هدهدت على كتفها، طلبت منها أن تتحدث بتلقائية دون خجل، حكت لها الفتاة أنها تعيش منذ عام كامل حبا مزلزلا دهامها دون رحمة واخترقها بقوة نافذة دون إذن مسبق، قالت الفتاة إنها لا تعرف إن كان ذلك حبا أو أنها واقعة تحت سطوة عمل من أعمال السحر، سألتها ملك عن تفاصيل أول لقاء، فاجأتها الفتاة بأنه لم يكن سوى لقاء واحد فقط، لم تشاهده سوى مرة واحدة، أردفت وهى تسترجع بتنهيده معذبة: كنا فى حفل يسيربشكل روتينى فى حديقة أحد المنازل، لم أشاهده خلال الحفل،لم أكن سعيدة بالحفل تماما ولا

sa7eralkutub.com

كنت انتظر حدثا غير إعتيادى، قطع هذا الملل مشاجرة عنيفة بين بعض الحضور، نشبت وتطورت سريعا دون سبب معلوم كأن روح شيطان أججتها، حدثت هرجلة وفوضى، قررت أن اغادر، كانت أشياء تتطاير، ملاعق، أطباق، كان الجميع يجرى عندما اصطدم بى أو اصطدمت به دون قصد، سقطت حقيبتى وتناثرت محتوياتها، كانت تلك الصدمة مثل صاعقة ضربتنى، كأن جذوة نار اصطدمت بشلال ماء، جلس يجمع معى حاجاتى وهو يعتذر، نظر لى بعمق، كنت مأخوذة تماما، كأنى أعرفه منذ زمن، كأنى شاهدته آلاف المرات قبل ذلك، كأنه قبلنى كثيرا فى أحلامى، أو قدم لى هدايا كثيرة فى أعياد ميلادى، الأقدام تهرول من حولنا ومن علينا، تتساقط الأشياء علينا وبيننا، كنا فى غفلة كمسحورين، قال لى إنه لم يكن يعرف سببا واحدا لمجيئه هذا الحفل لكنه أدرك حكمة ذلك الأن، أدركت وقتها أن الملائكة هى التى أثارت هذه المعركة وليست الشياطين، سألنى عن اسمى، قبل أن أعرف اسمه كانت طلقات رصاص تخترق الحوائط محدثة فزعا رهيبا، اندفعت الجموع وحدفتنى بعيدا عنه، سادت فوضى كبيرة، بعدها لم أجده، قلبى يحدثنى بأنه أيضا لم يجدنى، من يومها أشعر بأنى مخطوفة، لا تفارقنى رائحته، أشعر بشوق غامض له، وبأنى أسيره لدى فارس غامض، تنتابنى قشعريرة كلما تذكرته، لكنه لم يزورنى مرة واحدة فى أحلامى.

بعدما انتهت الفتاة، أحضرت لها ملك كوبًا من عصير الليمون، مرت بجوار ناجى تماما، شعرت بأنفاسه، شمت رائحته.

sa7eralkutub.com

بعدها قالت للفتاة: ـ الحب ليس له قانون واحد، قد يخطفك من نظره واحدة، ينتزع قلبك نزعا، ينتشل روحك فى أول لقاء عابر، يسحبك بعيدًا دون تبادل كلمة واحدة، وقد يبدو الحب كقطة صغيرة تحتاج أن تضعى لها الطعام والشراب وتمسحى على رأسها كلما مرت الأيام حتى تتعلق بك وتتعلقى بها،ثم تنهدت وقالت:

ـ وقد يحدث دون أى لقاء!(قالتها بنبرة موحية)

ـ تابعت: كل ما أنصحك به الأن أن تخلصى فى حبه، عندما تخلصين أكثر فى حبه سيشعر بك، حتى إن كان بعيدا عنك، سيصله ذلك ربما حتى فى حلمه، ستكون روحه أكثر قدرة على الرؤية، تفانى فى حبه سيتحسس طريقه إليك وسيأتى.

كانت ملك تقول ذلك بصدق وبيقين كامل وإيمان راسخ بما تعتقده، ابتسمت الفتاة، تهلل وجهها وآمنت على الفور بما سمعت

تعجب ناجى من ربة الحب تلك التى بعثرت أوراق حياته، تعجب من يقينها الصلد بما تقول.

فى صباح اليوم التالى، وجدت ملك طعام العشاء كما هو، بحثت عن رسالة هنا أو هناك لم تجد، شعرت بوحدة غريبة وكأنها لم تعش وحدة قبل ذلك.

* * * *

ماذا يمكن أن يقدم لمثل هذه السيده سوى ما قدمه لها يوسف؟ هل يمكن أن يواعدها فى كازينو على البحر ويشربان عصير البرتقال

sa7eralkutub.com

عند الغروب؟ هل يستيطع أن ينتظرها وهى تختار حذاءً مناسبًا من خلف الفاترينات بأعصاب باردة؟ هل يصحبها يومًا إلى طبيب الأسنان دون أن تخرج فلا تجده؟ أن يمنحها جسده كاملا خالصا دون أن يترك قدميه على النافذة مستعدة للقفزفى أى لحظة؟ ماذا يمكنه أن يقدم لكوكتيل وحدتها الممتلىء سوى بلورات إضافية من الألم والحسرة والفقد؟ هل كُتب على هذه السيدة أن تنتظر رجالا خائبين؟ رجالًا لا يفعلون شيئًا سوى أن يتمددوا بارتياح فى صندوقها المذهب كرسائل ميتة، عاش ناجى أياما مرعبة،تنسنس جسده ونقره التوتر والتفكير، لم يستطع الحشيش ولا أكوام متراصة حوله لزجاجات فارغة تسرق الذاكرة أن تفقده لحظة واحدة من الإحساس أو اليقظة المفزعة،فاتخذ قراره فى كامل صحوته، قرارًا يشبه فرمانًا بإعدامه، لا يمتلك ما يقدمه لها أكثر من ذلك...القتل دواء الأرواح الرقيقة المعذبة، لعلها تبقى كرمز مقدس فى ذاكرة الناس، ربما يبنى الناس حولها ضريحا ويحنطون جثتها، يتلمسونها عند فقد الحبيب أو من أجل أن تكتب لهم رسائل غرامية إلى هؤلاء الذين ذهبوا ولم يعودوا، قد لا تحتمل أن تصدم فيه هو الآخر، قد تعلن هذه المرةُكفرها على الأشهاد، وقد تغلق أبواب مدرسة الحب فى وجه تلميذاتها وتكتفى بنشر الهرطقة فى ساحات المدينة، ستقذفها تلميذاتها بالحجارة ويتهمنها بالجنون، ستموت وحيدة ليلا على الميناء أو فى حديقة منزلها بجوار قفص طيور الحب

يدرك أنه سيحترق، ستنطفىء شمعة حياته للأبد، سينقطع هذا الخيط الرفيع الباقى له بين كونه إنسانا أو كائنا خرافيًا، ربما يراه مسافرون عابرون فى الصحراء مصلوبًا على صخرة وقد أكلت الرمال روحه ولم يتبقى منه سوى عظام متيبسة لا تصلح حتى طعامًا لكلابهم،

sa7eralkutub.com

ربما سيجلس إلى ضحاياه على المقهى بذهن مشوشلا يقوى على اللعب، لن يتبادل معهم النكات لأنهم سيشعرون أنه أصبح ثقيل الظل، آخر الليل سينصرف دون أن يودعهم ودون أن يتذكر أنه لم يدفع حسابه،سيعيش كبطل إغريقى ملعون بعد أن ألزمته الألهة أن يكفر عن خطيئته واختارت لذلك حلا وحيدا أن يقتل محبوبته بيديه، لتصل مأساته إلى ذروتها، ستظل جراحه للأبد مغموسة فى بحر من كُحُل ملتهب لكنه وجد ذلك مقبولا ليطهر نفسه.

ملك كانت تنتظره، طيلة ما يقرب من شهر، تعد الطعام كالعادة فى انتظار أن يحط وليفها على مطبخها، لكنه لم يأت، تستدعيه لأحلامها ليأتى، فيأتى شارد الذهن مشوشًا لا يكاد ينظر إليها، ثم ينسحب سريعا مخلفا خلفه سحبًا من قلق، تستدعيه إلى فراشها ليلا فيبدو مرهقا منحولا، تهدهد على صدره، ثم تتحسسه بعد ذلك فلا تجده، رغم ذلك كانت متأكدة أنه سيأتى كطائر يحن بالغريزة إلى المكان الذى هدأت فيه ضجة روحه.

* * * *

sa7eralkutub.com

(20)

عادت ملك إلى الحياة بعد ثلاثة أيام قضتها فى عالم آخر، تتمنى أن تعود إلى حيث كانت قبل أن تفيق، اعتقدت أن الموت هو الذى منحها كل هذه البهجة عندما سقطت كجثة على أرضية الحمام، عاشت أيامها الثلاثة السابقة فى غفوة عميقة، لا تستشعر من الدنيا إلا مقطوعة ناجى الموسيقية (عندما تنام الموسيقى)، قبل ثلاثة أيام حملت روحها ريشة بألوان زاهية وطافت بها أرجاء مدينة مصنوعة من الثلج تحيط بها المياه من كل جانب، صُنعِت طرقها من عشب أخضر، تحفها أشجار الحب من كل جانب وهى الأشجار الوحيدة الموجودة فى هذه المدينة التى يتبادل سكانها الحب فى كل وقت وفى أى مكان دون خجل، المدينة بلا آسرة لأن سكانها لا تتذوق عيونهم النوم، بها فقط آرائك وأرجوحات لممارسة الحب، وبها جسر معلق فى الهواء طويل وممتد لا يعرف سوى سكان المدينة المكان الذى يفضى إليه، لا يغيب القمر عن المدينة، تكسو أشعتة الفضية المدينة طيلة الوقت مجانا خدمة للعشاق، رأت ملك عشاقا كانت تقرأ قصصهم فى الكتب يوزعون الورد وأسطوانات موسيقية فى الطرقات دون مقابل، يجلسون على الأرصفة يكتبون للراغبين رسائل غرامية، رأت رميو يشترى حذاء مذهبًا لجوليت وهو ينحنى ويضعه فى قدميها الصغيرة، فى ساحة المدينة يرقص عنترة التانجو مع عبلة بلياقة مذهلة، تشير لهما الملكة جوينيفر محيية وهى تركب فرسا أبيض بجناحين خلف السير لانسيلوت، يشوى قيس الذرة بسرعة بناء على طلب أنطونيو حتى يلحق هو وكيلوباترا حفلة فيلم كازبلانكا من أوله.

sa7eralkutub.com

عندما هبطت ملك ساحات المدينة صنعت تمثالا من الثلج لناجى كما ترآى لها فى مخيلتها، وضعته عند بداية الجسر المعلق فى الهواء، رقصت مع السكان حتى انتشت وتساقطت، فحملتها الريشة مرة ثانية، عندما فتحت عينيها كانت فى جو معقم ومعاطف بيضاء، بهزال شديد تحدثت وهى تهز رأسها، عرفت أنها منذ ثلاثة أيام حملها شخص إلى هنا فى غيبوبة تامة، ودفع لها علاج شهر كامل وجاء صباح اليوم ليطمئن عليها وترك لها هذه البطاقة.

(كل سنة وأنتى طيبة، حياتك قيمة كبيرة، ترفقى بى ولا تقتلينى بكل هذا الحنو الذى لا يحتمل).

من وراء ستار بغرفة العناية المركزة كان ناجى ينظر إليها مطمئنا، استفسر من الأطباء عن حالتها، قالوا إنها حالة عارضة، غير معروف سببها، ربما تعود إلى حالة من القلق أدت إلى هبوط حاد فى الدورة الدموية، وأنه من الواضح أن الحالة متمسكة بتلاليب الحياة وهذا يفسر أنها مازالت على قيد الحياة إلى الأن رغم أنها جأت فى حالة متأخرة جدا، ذكروا له أن آخر تحاليل أجريت هذا الصباح توضح أن الأمور تسير بشكل طبيعى جدا وبتطور سريع أصابهم بالدهشة، وأنها يمكن أن تغادر خلال يومين.

وضعت ملك بطاقة ناجى تحت رأسها تماما، سألتها الممرضات عن هذا الشخص الذى يهتم بها جدا والذى رفض أن يفارق المستشفى لمدة ثلاث ليال رغم المحاولات الكثيرة التى أجريت معه، لكنه ظل يجلس فى حديقة المستشفى طوال النهار، وفى المساء يتسلل من على السور ويغافل موظفى الأمن ليلقى عليها نظرة، عند موعد الزيارة

sa7eralkutub.com

يكتفى بأن يلقى عليها نظرة من خلف الستائر، قالت ملك: إنه صديق قديم، رأت فى عيون الممرضات نظرات حسد على هذا االهتمام الكبير وربما عدم تصديق، وجدتها ملك فرصة طيبة لإلقاء محاضرة من محاضرات رومانسيتها الحالمة، نقلت من العناية إلى غرفة عادية فحولتها إلى فصل أخر من فصول مدرسة الحب، سريعا انتشر أمرها بين الممرضات والأطباء والمرضى، تهافت كثيرون إلى غرفتها لطلب استشارات رومانسية عاجلة لدرجة أن أحد الأطباء صمم أن يجرى لها فحوصات ورسومات على قلبها معلنا أن هذه السيدة تحمل قلبا غير اعتيادى، لكنها كانت تكتفى بأن تقول:

ـ هو مجرد قلب يحب.

sa7eralkutub.com

بعد أسبوع خرجت ملك من المستشفى وسط بكاء كل العاملين والنزلاء بعد أن تركت فيهم تيارا من بهجة حالمة جعلهم يعيدون النظر فى دوامة الواقع الممل الذى يعيشونه.

خرجت ترتدى معطفا من الصوف تحته بلوزة بألوان ربيعية، اشتراهما ناجى خصيصا لهذه المناسبة وأودعهما إلى إحدى الممرضات وطلب منها أن ترافق ملك بسيارة خاصة ستكون فى انتظارهما أمام المستشفى، أمام باب المستشفى كانت ملك تحتضن معطفها تتشم فيه رائحة ناجى، تتلفت من زجاج السيارة علها تلمحه هنا أو هناك، سالتها الممرضة عنه، لماذا لا يرافقها؟

فاكتفت ملك بإبتسامة حزينة.

* * * *

www.sa7eralkutub.com

sa7eralkutub.com

صباح اليوم التالى استيقظت ملك فى كامل لياقتها الروحية، دلفت إلى مطبخها، وجدت إفطارا رائعا على مائدتها وكوبا من الحليب بجواره رسالة من ناجى، يطالبها بألا ترهق نفسها كثيرا هذه الأيام، حدث ذلك أيضا عند الغذاء والعشاء، كان يحضر الطعام من محل أطعمة للواجبات السريعة بشارع البحر، بهوس ظلت تبحث عنه فى كل مكان، اجتاحتها رغبة جارفة فى أن تتعلق بحضنه للأبد، أشد عذابات الوحدة وطأة هو الحنين المكبوت، كأنك تغلق قلبك على موقد مشتعل تزيده ساعات الانتظار إلتهابًا، متى إذن تلقاه وقد وصلت إلى قمة فورانها؟ متى يمكنها أن تنظر فى جوهرة عينيه وهو يتحدث؟ متى تتحسس الطريق إلى ضحكته وتستمتع برؤية قلبه ينتفض حين تنام على عشب صدره كعزالة برية ؟ متى تدرك أنه ليس شبحا من صنع خيالها؟ أنه بالفعل كان هنا رجل مر بأعتاب قلبها وتخفى بين حجراته، هاجمتها فكرة الشبح هذه لأول مرة عندما كانت تسير فى شارع البحر عائدة إلى منزلها فى نفس ذلك اليوم الذى سيخفف فيه ناجى من روع عذاباتها بالقتل، كان شهر قد مر دون أن يتناول طعامه فى مطبخها، اعتقدت أن خيالاتها المريضة خلقت تلك الشخصية الوهمية وكل تلك الأحداث التى مرت بها، وأن كل ذلك مجرد إنعكاسات لداء وحدتها المريرة، عندما وصلت إلى المنزل كانت الفكرة قد تلبستها تماما،، تمنت أن يظهر ناجى أمامها لتتحسسه، تخربشه، تأكل شفتيه، بكت بحرقة وبخوف، لم تعد شبكتها العصبية تتحمل هذا الخاطر المزعج الذى سيطر عليها كلية، أصابتها رعشة شديدة مع دوار متواصل، بجهد كبير استطاعت أن تدخل إلى صالة المنزل، رمت جسدها على أحد المقاعد، بدت ككيس من البلاستيك طوحته الريح دون سابق إنذار

sa7eralkutub.com

وسط أمواج المحيط، فضلت أن تنهى ذلك كله بدش من الماء البارد، بصعوبة تجردت من ثيابها قطعة قطعة، لم تستطع أن تتماسك أكثر من ذلك فسقطت على أرضية الحمام كرغوة.

أما ناجى فغادر إلى فندق قريب بالمدينة الساحلية، يتهيب اللقاء معها، لا يعرف ماذا يمكنه أن يفعل عندما يقف بين يديها، لا يمكنه أن يتحمل رقة هذا الجسد الذى يحوى أسرارا وفخاخا من البهجة قد لا يتحملها، هو الذى لم يرافق إلا جثثًا مخلية من الدسم الإنسانى، ولم يتعود أن يصحو فيبادره أحد بتحية الصباح، فهل سيتحمل عذوبة هذا الصباح حين يهف نسيمها على وجهه معبقًا بروائحها وهى تقول له بطريقتها صباح الخير؟ هل يتحمل الأسد أن يرفل فى الحرير دون أن يمزقه بمخالبه كحشائش الغابات التى تئن تحت وطأة مخالبه؟

منذ أيام قليلة وقف هذا الأسد أمام جسدها يترنح كأرنب دائخ،عندما وصل إلى منزلها ذلك اليوم الذى نوى فيه قتلها، كان يتصبب عرقًا، يرتجف، يشعر بثقل فى يديه، وبطنين يضرب أذنيه، كأنه لم يقتل قبلًا، ولم يقف فى موقف النحر هذا أبدًا، على حسب طقوسه كان يدرك أن روحها هى التى اختارت هذا اليوم وحددته كيوم تأفل فيه عن سماء هذا العالم، لم يكن يدرك المناسبة، كان ذلك صحيحاً تماما، يوافق هذا اليوم، يوم خسوف يوسف من حياتها إلى الأبد، حين خبا النور من عينيها منذ عشر سنوات، رغم ذلك كان عازما على أن يفعلها، وجد سكونا غريبا فى المنزل، تلمسها فى كل مكان لكنه لم يجدها، وجدها بعد ذلك فى الحمام عارية تماما مغشيا عليها راقدة فى سلام على أرضية الحمام، تأملها مصدوما، لم يكن يدرك ماذا يفعل أو ماذا

sa7eralkutub.com

جرى، هل انتحرت؟ وهل هكذا تنتحر الأرواح الرقيقة؟ هل فعلت ذلك نيابة عنه لترفع عنه الحرج، هل يفعلها الأن مستغلا تلك الفرصة التى سهلت الكثير من مهمته؟ اقترب من جسدها العارى بسطوته التى تـُخضِع كبار القتلة والسفاحين ليعيشوا حول رحابه كدراويش هفهم الطرب، داعب عنقود العنب الأحمر أسفل نهديها، وجد حباته تنبض وتلمع بالحياة، الأن عليه أن ينزع تلك الروح من هذا الجسد المُرهَق بمباهجه، استجمع قواه وتركيزه، يقترب ويعود، يهم بها ويتراجع، ينتصب ويتراخى، تذكر ضحاياه الذين ينتظرونها الأن بكامل ملابسهم الأنيقة ليقيموا لها حفل استقبال على شرف روحها التعيسة، يتهامسون فى خبث وترقب، ماذا سيقول إن لم يفعلها؟ ماذا سيقول عندما يأتون لزيارته كالعادة فى المساء ليشربوا معه الشاى أو يلعبوا الورق؟ كيف سيواجههم بعد ذلك وقد اهتزت أسطورته فى أعينهم؟ هل سيقتنعون عندما يقول لهم أنه لا يمتلك كل هذا الفُجر، ليزهق روح ملاك تسكن جسدًا يضاجع ذاته على سرير الوحدة؟!، ماذا يمكن أن يحدث لهذا العالم إن حل المساء بدونها ؟!

، لثوان طاف برأسه أن غضب الطبيعة علينا عندما تفاجئنا بالزلازل أو البراكين والعواصف أو اندلاع الحروب أو الحرائق، قد لا تعود إلى تلك الأسباب الواهية التى جأت بها نظريات وتحاليل علماء مخرفين يحاولون أن يناموا مطمئنين بعد أن سيطروا على الطبيعة، الأقرب إلى الدقة والمنطق، أنه يعود إلى فقدان روح كهذه كانت تعيش بيننا فى أى شبر فى العالم لتحفظنا من كوارث نستحقها،

sa7eralkutub.com

فى لحظة طمأنينة كاملة أعلن: أنه لا يستطيع أن يتحمل أمام العالم أو أمام ضميره هذه المسئولية الضخمة، فمثل هذه الروح قادرة على أن تجعل العالم مقبولا ومقنعا وله ما يبرره.

وجد نفسه يجرى سريعا، أحضر روبا من دولابها، انزلق جسدها فيه سريعا وبهدوء، حملها بين يديه خفيفة كزغب من ريش وركض بها إلى المستشفى، وخلال أيام رقدتها كان يتأمل بذعر ماذا يمكن أن يحل بنا من غضب إن رحلت فجأة؟!.

* * * *

sa7eralkutub.com

(21)

عاد ناجى سريعا إلى أحد أوكاره فى القاهرة ليجمع بعض بطاقات الائتمان التى يخفيها هناك، قرر أنه ربما لن يعود ثانية إلى هنا، قبل عودته فضل أن يلتقى بسلطان، عندما ذهب إليه وجده راقدًا داخل كشكه الخشبى هزيلا لا يقوى على الحركة، ليس حوله سوى قططه التى باتت قلقة من مستقبلها المجهول، بصوت ضعيف رحب به سلطان، تحسس ناجى جبهته التى كانت ملتهبة كبلاطة فرن، نظر له سلطان بعينيه الضيقة التى يفتحها بصعوبة، طلب منه ناجى أن يسمح له بإحضار الطبيب أو ينقله إلى مستشفى قريب، ضحك سلطان وهو يسعل بشدة، عندما سيطر على حركة سعاله قال:

ـ القتلة لا يذهبون للمستشفى، لا يهتم أحد أن يحضر لهم الورد، كما أنهم لا يفضلون فى هذه اللحظات أن ينظر إليهم أحد بشفقة.

أغمض سلطان عينيه، جلس ناجى بجواره يتأمل جبهته التى تشبه خريطة قديمة ومهترئة، وتلك الرغاوى التى تنحدر من فمه، كان سلطان يجز على ما تبقى له من أسنان فتئن تحتها سنته الفضية الوحيدة فى فكه السفلى، فضل ناجى أن يتركه وحيدًا فى هذه اللحظات الخاصة، لكنه تساءل وهو يغادر، من يدفن جثث القتلة حين يموتون؟ وهل ستهتدى تلك القطط إلى قبره حتى لا يشعر بالوحشة؟

* * * *

sa7eralkutub.com

عاد ناجى إلى الفندق القريب من منزل ملك، يزورمنزلها يوميا كالعادة من نافذة المطبخ، طلبت منه ملك فى رسالة وضعتها بالمطبخ عدم شراء أطعمة جاهزة، قالت: هى مجرد شكل فارغ مجرد من المضمون وأنها الأن قادرة أن تصنع له صينية البطاطس المحشوة باللحم.

فى رسالة تالية طلبت منه أن تقابله قريبا لأنها لا يمكن أن تقضى ما تبقى من عمرها فى عشق شبح لا يمكنها أن تقبله بين عينيه أو أن تدعك جسده بالماء ورغاوى الصابون، وعدها ناجى فى رده أن يحدث هذا قريبا.

• بحاسته التى تستشعر الخطر، وبخبراته السابقة وطول مراسه أدرك ناجى أن هناك من يترصده، يستطيع دائما أن يتشمم رائحة قوات الأمن من على بعد عشرات الأمتار، تلتقط أذنه دبيب أقدامهم على الأرض حتى وإن مستها مسًا، يحفظ جيدًا حيلهم وطرقهم فى نصب الفخاخ والأكمنة، ترك الفندق سريعا، رغم ذلك قررعدم مغادرة المدينة الساحلية، استأجر شقة صغيرة قرب الميناء، مفتوحة مباشرة على البحر، لن يركض بعيدا بعد ذلك، ليس لأن أنفاسه لم تعد تتحمل ذلك، ولكن لأنه اكتشف أن مقولة أبيه التاريخية التى تفتقت عنها قريحته ذات مساء لعين (الرجال لا يتوقفون عن الركض) هى مجرد طنطة فارغة لرجال خائفين، فضلوا أن يعيشوا كأشباح مرتعدة، رجال استوحوا حكمتهم من تراث قديم موحش ومن موروث معتق بالكراهية والثأروروائح البارود التى يتعطرون بها كل مساء، فيعضهم ذلك الهياج المسعور، الذى يجعلهم يركضون ككلاب مذعورة وراء الآخر أو من

sa7eralkutub.com

الآخر، لم يعرف والده أن هؤلاء الرجال الذين لا يتوقفون عن الركض لا يمكنهم أبدا أن يكونوا رجالا عاشقين، للحب إيقاعه الخاص الذى لا يتناغم مع وقع قلوب تلهث دائما، قلوب كهذه لا يمكنها أن تنبض بالحياة، فقط تلهث، كان ينظر إلى صورة لوالده احتفظ بها دائما فى محفظته، ضاعت منه صورة مشابهة لأمه فى أمانات السجن ذات مرة، يتأمل الصورة، ملامح أبيه المرهقة ربما من الركض المستمر، شاربه الكثيف المدبب كشوك الصبار، شعره الذى شيبته الوقائع وأكل القلق نصفه الأمامى، هذا الذى كان يومًا كبيرا للعائلة، يتقدم صفوف الراكضين، على طاولته يضعون خططهم العاجلة أواستراتجيتهم الطويلة من أجل استمرارهم الذى بدا قدريًا فى الركض،فى صحن منزله يستقبلون هؤلاء الذين سقطوا بعدما عجزت قلوبهم عن مواصلة الركض.

ـ الراكضون يا أبى لا يتوقفون إلا للسيطرة على أنفاسهم المتلاحقة، على أيديهم المرتعشة، لضبط الناشينكان والضغط على الزناد، بعدها يركضون ثانية، يعلمون أن توقفهم لا يعنى سوى الموت، السكون لهم هو النهاية، لا ترتاح مفاصلهم إلا عندما يصبحون جثث هامدة، عندما زرت قبرك كنت اعتقد أننى سوف أجده فى قرى مجاورة أو على الجانب الغربى من النيل، وعندما وقفت أمامه شككت للحظات أنك لست هنا، عندما كنت أغادر أدركت أنك حبيس وغير قادر على الحركة، أعرف أنك تتعذب كثيرا وأنت مقيد فى كفنك كرجل ميت، اعلم أنك تفشل دائما عندما تحاول أن تجمع هيكلك العظمى ومفاصلك لتركض من جديد.

sa7eralkutub.com

ـ الراكضون يا أبى لا يمكنهم أن يبنوا مدينة للعشق، ليس لديهم وقتًا كافيًا لكتابة رسائل غرامية تحمل عطرهم، لا يمكنهم أن يمشوا فى شارع البحر تعانق أصابعهم أصابع نسائهم، لايخلعون أحذيتهم على الفراش، لا يضاجعون النساءإلا واقفين، لا تشعر معهم النساء بالمتعة ؛ لأنهم ينتهون سريعًا ويرفعون سراويلهم المدلاة التى لم يخلعوها ؛ لذلك لا ينحدر من أصلابهم إلا أبناء يركضون.

فضل ناجى أن يكون هنا وإلى جوارها فى يوم الفالانتين الذى سيحل بعد يومين، يتذكر تلك الطقوس الذى شاهدها فى مدرسة حبها العام السابق لأول مرة، مرت سنة سريعا، سريعا جدا كما لمحة، لكنها كانت سنة بعمره كله، يكفيه أن عاشها، بكل ما كان فيها من ألق، وبكل ما اختزنته من بهجة هى مجموع بهجة مختزنة بطول عمره، كأنها أُدخرت لهذه السنة، تكفيه هذه السنة وزيادة وإن مات بعدها.

* * * *

sa7eralkutub.com

(21)

صباح يوم الفالانتين استيقظت ملك بقلب هلوع إثر كابوس ليلى مفزع، رأت كلاب حراسة سوداء ضخمة لها شوارب كثيفة وذيول قصيرة تطاردها، سقطت وتحلقت حولها الكلاب، بدأت تقترب منها وهى تزوم بحشرجة مكتومة، ثم بدأت تتشممها، كانت تبحث عن شيء ما تعرفه جيدا مدربة على انتزاعه وإن كان فى قرار بعيد، نزعت ثيابها بأنيابها الخشبية المدببة حتى اقتنصت منها رسالة غرامية معطرة بعطر ناجى كان تخفيها بين طيات الملابس، ثم جرت بعيدا وهى تقفز بسعادة غامرة، عندما استيقظت أخذت دشا باردا لتطرد شظايا هذا الكابوس من هواجسها، دخلت إلى المطبخ اطمأنت أن ناجى قد تناول إفطاره، أعدت سريعا سندوتشا صغيرا من مربى التين واصطحبت فنجان قهوتها الأثير وجلست فى الحديقة على كرسيها الخيرزان تحت خيمة بنتها أشعة شمس دافئة، أدركت أن ناجى موجود بالمنزل، باتت تعرف ذلك تماما من رائحته، فلم تحسوحدتها الحارقة، سارت فى الحديقة ودارت عدة مرات، قطفت عودا من ريحان، ذكرها بيوسف، كان يقول لها: الريحان زهرة العشاق المساكين، فكرت أن تكتب له رسالة كما طلب منها، أجلت ذلك عدة مرات عندما كانت جراحها مازالت مفتوحة وملتهبة ؛ ربما حتى تهدأ مشاعرها تجاهه ولاتجرحه بعبارات حادة، لكنها رأت أنه من الوفاء أن تفعل ذلك الأن، قامت سريعا إلى حجرتها، تناولت ورقة بيضاء، جلست أمامها كثيرا دون أن تكتب كلمة واحدة، بكت ودعت أن يفرج الله كربته، لكنها لم تستطع أن تخط له حرفا واحدا، تمنت فى هذه اللحظة أن تقبل رأسه وتهدهد على صدره،

sa7eralkutub.com

طوت الورقة ودخلت إلى المطبخ، أعدت طعام الغذاء لناجى وتركته له، جرت سريعا إلى الورقة وكتبت كلمة واحدة (الأن سامحتك)، كتبتها بكل هذا الصفاء الذى يمكن أن يحمله قلب يحب، وضعتها فى مظروف بجوار عود من الريحان ثم جرت سريعا لتلحق بمكتب البريد قبل أن يغلق أبوابه.

* * * *

ناجى كان يواصل استعداده للقاء الأصعب فى حياته، اتفق مع محل حلويات شهير فى المدينة على صنع تورتة ضخمة من الفواكه المطعمة بالشيوكولاته، فكر كثيرا فى هيئتها حتى قررأن تكون على هيئة كمان يتوسطها قلب صغير من حبات الكريز، قال أنه سيعزف ساعتها على كمانه مقطوعته التى ألفها من وحيها، رأى أن أى كلمات وقتها ستكون فاقدة للدلالة وستكون مفرغة وعاجزة،ابتاع باقة من الورد جمعها بعناية من أحد المشاتل، فى شارع البحر الذى يموج بالباعة فى هذه المناسبة وقف أمام باعة القلوب الحمراء والدباديب المصنوعة من القماش المحشو بالريش، تلفت حوله كثيرًا، وربما شعر بالخجل وفكر أن يتراجع، كأنه يسأل نفسه ماذا لو شاهده أحد من ضحاياه يبتاع مثل هذه الأشياء؟! لكنه فعلها فى النهاية وحمل هداياه فى حقيبة هدايا أنيقة، بعدها ذهب إلى صالون حلاقة وطلب أن يحلق شاربه ولحيته، كما اشترى لنفسه حذاء وثيابا جديدة من أجل هذه المناسبة النادرة،فَرش أسنانه، أخذ حمامًا باردًا، ورش نفسه بالعطر الذى يروى به رسائله، وقف أمام المرآة يتأمل هيئته، يفترض أن العشاق يستعدون هكذا للحب، يحرصون على كامل الأبهة والتألق قبل اللقاءات، ورغم

sa7eralkutub.com

أنه كان لأول مرة يرى نفسه بتلك الهيئة وذلك السمت الغريب عليه، إلا أنه اعتقد أنه لأول مرة يرى نفسه، ورغم أنه سبق له أن تنكر فى عشرات الشخصيات وتقمص عشرات الأدوار، وارتدى الكثير من الملابس وأدوات التنكر، إلا أنه لم يسبق له أن تقمص شخصيته، لم يؤد دور ناجى من قبل، الأن أصبح متهيأ تماما للقاء، للحظة الكشف التى كثيرا ما تهيبها، بات قادرا على أن يقترب ويشتعل دون أن يحترق، أن يلمس نارها فتكون بردا وسلاما، أن يتطهر ويصلى صلاة عاشق خاشع لا صلاة مودع مستعد للركض فى أى لحظة، الأن يستطيع أن ينزل إلى نهرها دون خوف، يرشف وينهل دون أن يرتوى، فيرشف وينهل ثانية ويشكر الله على العطش الجميل، سيلقى الأن بكل أدوات التنكر بعيدا، سيرمى تلك الملابس التى يرتديها لشخصياته المقنعة التى ليست هو، سيرمى معها إكسسوارتها العديدة التى تستكمل رسم أبعادها، سيحرق هذه الشخصيات التى كثيرا ما تلبَّسها وتلبَّسته، سيحرقها كدمى مثيرة للشفقة، سيمزق كل أوراق الهوية المزيفة، البطاقات الشخصية التى تحمل اسماء ومهن مستعارة، سيلقى بأحذيته الخفيفة التى كان يعدو ويركض بداخلها فلا حاجة لذلك الأن ؛، سيتخلص من كل أسلحته التى تصلح للقتل، سيطلب من رفقته الطيبة أن يتوقفوا عن زيارته كجثث ميتة، سيقابلها وهو ناجى...ناجى الذى لم يعرفه ولم يقابله منذ زمن بعيد، ربما منذ أن كان طفلا فى السابعة يلهو هناك فى أزقة قريتهم الضيقة، سيكشط هذه الطبقات الحجرية المتيبسة على وجهه، هذه الأقنعة المرعبة التى يرتديها القتلة ليسيطروا على ضحايهم، سيضبط إيقاع خطواته ونبرة صوته كما ينبغى لعاشق، سيلقاها إذن بقلب دافىء بعد أن ساحت جبال الثلج التى كانت تدق أوتادها الباردة فى أعماقه .

sa7eralkutub.com

(22)

عادت ملك من مكتب البريد، دخلت إلى المطبخ، أدركت أن ناجى قد تناول طعامه، وجدت رسالة على المنضدة، فتحتها برفق، مجرد كلمات قليلة تحمل كل دلالات السعادة الطاغية، قال لها الليلة سنكون معا وسنحتفل سويًا بالفالانتين، تجمدت غروقها، احمَر وجهها من سعادة مفرطة تكاد تقفز من داخلها، أخيرًا تلتقى برجالها الغائبين، لن تكون مضطرة بعد الأن أن تأكل طعامها وحيدة كقطة شريدة، لن تتحدث مع الجماد وتتشاجر معه وتسمعه وهو يسبها، ثم تسامحه فى آخر الليل، لن تستدعى بعد ذلك رجالها الراحلين على فراشها لتنام داخل أحضانهم الافتراضية الباردة، لن تتنظرهم مرة أخرى على رصيف الميناء، نظرت لساعة خشبية عتيقة فى منتصف الصالة، كانت تشير للرابعة، لابد أن ترتدى ثيابا جديدة، ثيابا ليس بها رائحة ذكريات ماض عطن، كانت حائرة وهى تجوب محلات الملابس، تتأمل نفسها داخل قطع الثياب، بصعوبة بالغة أشترت فستانا من الدنتيلا بلون حليب صباحات سعيدة، أحست بداخله إحساس الفُلة الزاهية بنفسها صباح يوم عيد الربيع، اشترت قطع عديدة طازجة من قمصان النوم، قمصان ليست كقمصانها القديمة الغير مهيأة لاستعمال الرجال الحاضرين، فى طريقها ظلت تبتسم لتلميذات مدرستها فى شارع البحر، تتبادل معهم حديثا سريعا عابرا وتمضى، ابتاعت علب بيرة مثلجة وسودانى وبعض الفاكهه وعادت للمنزل، أعدت حمامها سريعا، أضافت إلى الماء الفاترفى البانيو منقوع زهره البليسيان والياسمين واستلقت مسترخية تداعب جسدها برغاوى الشامبو المعطر بروائح أعشاب البحر، تنفض

sa7eralkutub.com

عن جسدها أوساخ ذكريات قديمة مؤلمة وأثار سنوات بعيدة مرت على جسدها كشاحنة بضائع ثقيلة تركت علاماتها القاسية، نقشت ذراعيها بالحناء، أزالت زغبا سكن أركان وزوايا جسدها، أطلقت سراح شعرها وجعلته حرا ومرسلا على كتيفيها يمرح كالهواء، تعطرت بعطر اشترته لتوها، رأت أنه يتناسب مع هذه المناسبة من خلاصة رائحة الشيكولاتة والعنب الأحمر والأوركيد واللوتس، نظرت للمرآة، كانت فى هيئة لم ترها من قبل، ليس بسبب ملابسها أو أصباغها فحسب، بل بسبب إنعكاس روحها المبتهجة هذه الليلة على كل ربوع جسدها، سريعا وضعت لمسات من بهجة على المنزل، جعلت الإضاءة أقل خفوتا وأكثر إشراقا، نثرت بعض البالونات وشرائط الزينة هنا وهناك، غيرت من وضع بعض الكراسى، وأبعدت كرسيا فرنسيا من طراز كلاسيكى كان يجلس عليه زوجها مالك بيه إلى المخزن، كما جهزت طقم الشاى وبعض الأطباق والشوك والملاعق

أشاربندول ساعتها الخشبية النحاسى إلى العاشرة، رأت أن هذا ميعاد ملائم تماما لقدوم ناجى، قالت أنها ستتشمم رائحة عطره بمجرد أن يقترب من البوابة الحديدية، فكرت ماذا يمكن أن تقول له عندما تراه، هل تجدى كلمات عادية مثل أهلا وسهلا، مرحبا، رأت أنها كلمات فارغة لا تحوى سوى مضمونا خاويا من دلالة، فضلت أن تترك ذلك لقاموس التلقائية المدهشة، مرت ساعة أخرى، خرجت إلى الفراندة المطلة على حديقتها، وجدت نباتات الحديقة تسبح فى بركة طبيعية من وحى أشعة القمر الذى كان صافيا تماما فى هذه اللحظة دون أى غبش، قالت هذا موعد مناسب تماما، لكنه لم يأت، تذكرت أنها نست فى أثناء ذلك كله أن تضع طعام العشاء داخل قفص طيور الحب،

sa7eralkutub.com

وضعت بعض حبات الأرز والذرة وداعبتها بأصابعها قليلا، ثم سألت نفسها أين يمكنها أن تنتظره؟ هل تنتظره عنده البوابة الحديدية وتفتح له عندما يدق الجرس؟ هل تترك البوابة الحديدية مفتوحة وتستقبله هنا أعلى سلالم الدرابزين الخشبى المؤدى للفراندة؟ ارتحات إلى ذلك الرأى، مرت ساعة أخرى، منتصف الليل، وقت صلاة العاشقين، وقت المناجاة والملاغاة، حين يفرض السكون سطوته على الكون مخرسا كل أفعال الثرثرة والطنطنة واللغو، لكنها لم تشم رائحة ناجى، قفز تساؤل بسيط إلى ذهنها، هل يمكن أن يأتى هذه الليلة من نافذة المطبخ كعادته؟ هل نافذة المطبخ مفتوحة؟ تتركها دائما مفتوحة منذ علمت أنها مدخله المفضل إلى منزلها، ربما قد نسيت وأغلقتها بعد العصر!، ربما هواء لعين أغلقها!، قد يأتى منها كعادة أثيرة، أسرعت إلى المطبخ، كانت النافذة مفتوحة، مرت ساعة، الواحدة تماما الأن، الواحدة بتوقيت عاشقة تنتظر، يوم جديد يولد، خيوط صباح جديد تتدلى من السماء معلنة عن يوم اندثر ولن يعود أبدا، هذا ملائم تماما لفتح صفحات بيضاء فى تاريخ جديد يولد، بدلا من تلك الصفحات الأفلة الغابرة، جلست فى الفراندة على الكرسى الخيرزان تنتظر، مرت ساعة وساعة وهى جالسة، بدت مثل جمرة ملتهبة، مثل نبى تأخر عليه الوحى فأكله التوتر والشك، مرت ساعة وآخرى، بدأ الكون يستيقظ، يفرك عينيه من غشاوة الليل، سيأتى لا محالة، لن يكون مثل يوسف، لماذا كل رجالها يضربون لها المواعيد وينسون أن يضبطوا ساعاتهم؟، لماذا دائما هناك فارق توقيت كبير بينها وبين رجالها؟ أخذت تلف فى الحديقة كنحلة تائهة حتى لسعتها أشعة الشمس الحارقة.

sa7eralkutub.com

(23)

لثلاثة أيام متتالية ظلت ملك تدور فى جغرافية محددة لا تتعدى الفراندة، الحديقة، نافذة المطبخ.. دخلت الحمام مرة واحدة لتفرغ عصارة معدتها الخاوية بعد حالة من الإعياء الشديد، لم تخلع فستان الدانتيلا الأبيض خلال أيامها الثلاثة التى تحولت إلى ما يشبه أيام الحداد، حواسها يقظة طيلة الوقت تقريبًا، تتعاقب عليها الأوقات، تنظر لها الشمس من علٍ نظرات بها كثير من الشفقة، يرق لها القمر ليلًا فيفرش أشعته على فناء حديقتها، تغفو أحيانًاعلى الكرسى الخيرزان أسفل قفص طيور الحب التى لم تقترب من طعامها طوال الأيام الثلاث ربما لإحساسها بحالة الكآبة العامة التى تحيط بالجو حولها أو لمشاركتها حالة الحداد، يكاد قلبها ينفلق من قلق وفزع، تتمنى أن تراه ولو مرة واحدة، أو فقط تتحسس وجوده فى منزلها، لو يخطو مرة واحدة من نافذة مطبخها، لو تطمئن ...فقط تطمئن.

بعد أربعة أيام استبدلت ملابس روتينة بفستان حدادها، ظلت تضع طعامه فى المطبخ ثم ترميه فى صندوق القمامة عندما لا يأتى لتضع وجبة جديدة فى انتظار أن يأتى هذا الذى يستحق أن يأكلها، لم تستطع أن تستقبل زبوناتها أو أى من تلميذات مدرسة الحب، ربما لأن روحها كانت مثل ضرع جاف لا يحمل سوى خواء.

هاجمها مرة ثانية هذا الهاجس المزعج.. ربما يكون ناجى مجرد شبحا من صنع داء وحدتها اللعينة، وربما توقفت قدرة خيالها عند هذا الحد، فلا تستطيع أن تستدعيه إلى عالمها مرة أخرى حتى ولو

sa7eralkutub.com

كمجرد شبح خفى، لم يستطع خيالها أن يسويه بشرا تلمسه ويلمسها، فاكتفى بجعله مجرد ظل رجل يقفز من النافذة يأكل طعامها ولا يقربها أو تقربه، يستخدم حمامها ولا يستحم معها، يدخل إلى غرفة نومها ولا يشاركها فراشها، يكتب لها رسائل غرامية دون أن تقبله بين شفتيه وهو يتحدث، يحضر لها تورتة عيد ميلادها دون أن تكون له قدرة أن ينفخ فى الشموع، لسعها الجنون، أكل عقلها هذا المس الذى يصيب من يعيش بين بين، بين الحقيقة والظل، الواقع والخيال دون أن يملك دليلا واحدا يبرهن له أين هو من كل ذلك .

بائع الجرائد أبعدها قليلا عن هذه الأرجوحة المرعبة عندما رمى بجرائد الصباح تحت عتبات البوابة الحديدية، نزلت درج السلم الخشبى بهدوء، وجدت جرائد الأيام السابقة مبعثرة أسفل بوابة منزلها، بعضها مزق التراب صفحته الأولى، براز عصافير دهن بعض المانشيتات الرئيسة بلون أصفر شاحب تستحقه، فرت الصفحات سريعا، فلم تجد شيئا، راجعتها بتأن فلم تجد شيئا، بعد يومين أشارت صحيفة مستقلة إلى أن الشرطة تتكتم خبر القبض على المجرم الخطير الذى هرب منذ عدة شهور ؛ لأنها كانت قد أعلنت القبض عليه بعد هروبه مباشرة، بينما أشارت مصادر الصحيفة أن المجرم الهارب لم يتم القبض عليه سوى منذ بضعة أيام فى إحدى المدن الساحلية، تساقطت ملك مكانها كنخلة لم تعد تتحمل عبث الريح بها، تساقطت كما تتساقط الريشة بعد أن يملها الهواء ويتخلى عنها فيتركها تهوى إلى قاع سحيق.

فى سجنه الإنفرادى لم يكن ناجى يفكر إلا فى كيف يرى ملك، لأول مرة يشعر أن السجن يحرمه من أشياء مبهجة، اشياء آخرى غير

sa7eralkutub.com

الركض بعيدا عن أسواره، تعجب من رحابة القوانين وسعة صدرها حين تسمح لرجل أن يضاجع زوجته فى السجن، أو تتيح له أن يمشى فى جنازة والده، بينما لا يتسع صدرها لتقبل إلتماسًا من قاتل محترف، يطلب أن يقدم هدية الفالانتين إلى امرأة يحبها!

بدأ يفكر كيف يهرب كما هرب مرات كثيرة، يعرف أنه تحت حراسة مشددة، وممنوع عليه حتى التريض فى فناء السجن، يقضى حاجته فى جردل نحاسى قديم، ظنه من أيام الفراعنة، لو كان محبوسًا أيام الفراعنة هل كانوا سيسمحون له بما عُرفوا به من تحضر أن يخرج للقاء ملك؟، أم كانوا سيسحبونه من السجن ليستخدمونه فى تشييد الأهرامات، كم بال فى هذا الجرد المسكين من معذبين مثله! كم تحمل قعره الصدىء دفقات وابل بولهم الصارخ بأن ينساح فى براح أكثر اتساعًا، كم تخوض فيه من أناس حرمتهم تلك الأسوار والقضبان من أدوار جديدة كانت تنتظرهم بالخارج، يعرف أنهم سيقدمون له قريبا البيجاما الحمراء، وأنه ككل مرة سيرفض أن يرتديها، لا لأنها ليست على مقاس روحه كما كان يرى كل مرة، ولكن لأنه يجب أن يرتدى ثيابه الجديدة التى اشتراها خصيصا للقاء ملك، عليه الأن أن يمارس حقه فى ذلك التفكير الطبيعى الذى يراود أى مسجون حالم فى أى عصر وفى أى سجن، أن ينفذ، أن يخترق، يبسط جناحيه ويحلق، يكفيهم أنهم أفسدوا أول لقاء، لكنهم لن يمنعوه بهجة اللقاءات القادمة، تكفيه هذه العقوبة، ضربوا ضربتهم فى الوقت الصعب، كان ناجى خارجا من محل الحلويات يرتدى ثيابه الجديدة، يحمل تورتة الكمان،وحقيبة الهدايا،يسير فى شارع البحر كمنتج بشرى بعد أن أزال هذه الطبقة الكثيفة والسميكة التى ضربت على روحه مُشكلة أسطورة لرجل غامض يقتل لكى لا يعيش وحيدًا،

sa7eralkutub.com

يدندن بأغنية من وحى سعادته، يشير لتاكسى، ركب وهو يضع التورته على ساقيه كطفلة سعيدة، قبل أن يتحرك التاكسى، أحاطت به سيارات كثيفة، مدرعات مدججة، أحاطت الكالب البوليسية بالتاكسى تنهشه، تنقر الزجاج بخرطومها المدبب، لم تكن هناك مساحة كافية للركض، فضل أن يترك التورتة وحقيبة الهدايا للسائق، ربما يعيطها لمن يستحق، وضعوا عصابة على عينيه، لكنها لم تكن محكمة لتمنع بصيص النور الذى يداعب خياله، سينسج من خيوطه حبلاً، يتدلى به إلى حيث سور منزلها،

الأن يستعد لركضته الأخيرة، سيرسل إلى ملك ويطلب منها أن تستعد، وأال تحاول زيارته؛ لأنه يفضل أن تراه فى ثيابه الجديدة كما ينبغى لعاشق.

سحر الكتب
sa7eralkutub.com

* * * *

فى هذا الوقت الغير مناسب بالمرة، جأت لملك رسالة من يوسف، عبر عن سعادته برسالتها وامتنانه الشديد لأنها قبلت أن تسامحه، ذكر لها أنه يشعر أن السجن عقاب يستحقه ليس على أنه قتل زوجته بل لأنه فرط فى حبه من البداية، قال: القتل لحظة يا ملك مثل النوم عندما يأتى لا تستطيعين أن تفلتى منها، عندما تستيقظين بعد ذلك يكون كل شىء قد انتهى، لكنها لحظة ملهمة ؛ لأن حقائق مذهلة تتكشف أمامك بعد لحظة القتل تلك، لم نكن سندركها سوى بتلك اللحظة.

.....- لقد برأت منك يا يوسف، برأت من علتك بعلة، من داءك بداء أشد قسوة.

www.sa7eralkutub.com

sa7eralkutub.com

فكرت فى جرمها وخطيئتها الكبرى التى ارتكبتها حتى تستحق هذه العقوبة الأبدية: أن تظل سجينة هذا البراح الضيق لفناء منزلها بينما رجالها يعيشون فى زنازين إنفرادية واسعة؟

قضت أيامها بعد ذلك كما ينبغى لشخص تعيس، روح خاوية منطفئة فقدت زهوها، فقط روح تقضى حاجاتها البيولوجية، روح لا تقوى سوى على التبرز، أوصدت أبواب مدرسة الحب فى أوجه الجميع، لم ترغب فى أن يراها أحد وقد تحولت إلى صنم من عجوة تأكله الأحزان، لن تستطيع أن تقول لهم إنها تعيش الأن حالة من الزندقة والهرطقة والخواء كإمرأة شيطان.

عاودتها فكرة الانتحار ثانية، وجدت أنه خيار وحيد ُفرض عليها بعد أن وصلت إلى قمة النضج الذى يجعلها تفكر فى ذلك جديا، لا ينتحر سوى أولئك الذين بلغوا مرحلة من الكشف والنضج تبدو بعدها الحياة مملة، الانتحار نهاية للعبة مملة لا تريد أن تنتهى ؛ ببساطة لأنها ليست لها قوانين، قانونها الوحيد ألا تنتهى سوى بالانتحار.

ظلت تفكر فى الكيفية، ما الطريقة التى تناسب روحها؟ كل من حاول أو فكر فى الانتحار فكر بشكل جدى فى الوسيلة الناجحة التى تناسبه قبل أن يفكر فى الوسيلة المريحة، بعضهم فكر فى القفز من أعلى بناية، شريطة اختيار الطابق المناسب حتى لا يصبح مجرد معوق يفكر بعد ذلك فى طريقة أكثر فاعلية لينتحر من جديد، استبعدت ذلك ؛ لأنها تخشى النظر من أعلى كفوبيا قديمة تعانى منها، استبعدت الزرنيخ وسيانيد البوتاسيوم ؛ لأنها لا تحب أن تموت بروح فأر مذعور، فكرت أن تربط حول وسطها حجرا ثقيلا وترمى جسدها فى البحر، وجدت

sa7eralkutub.com

أنها لا تمتلك جرأة كاملة لتواجه مياه البحر الباردة، فكرت أن تستخدم بندقية صيد من ميراث زوجها الراحل مالك بيه إلا أنها رأت أن إطلاق النار على رأسها سيفقدها جمالها الذى ستحتاجه فيما بعد، حتى لاتقابل رجالها الراحلين بعد ذلك بروح مشوه، توصلت أخيرا إلى الحبوب المهدئة التى استخدمتها قبل ذلك فى محاولة فاشلة، ستتناولها هذه المرة بجرعة كفيلة أن تمنحها موتا عميقا بروح متأملة بعد أن تستلقى على فراشها.

اشترت كمية كبيرة من عدة صيدليات مختلفة، نصحها أحد الصيادلة بألا تعتاد عليها، أومأت له ساخرة بأنها ستتناولها لمرة واحدة فقط، عندما وصلت إلى منزلها قالت أنها ستموت عارية، لا حياء فى الموت، عارية كما جأت أول مرة، فضلت ألا يكون ذلك فى البانيو كالمرة السابقة ؛ لأن الماء ينعش ذاكرتها وهى فى طريقها للموت وليس على هذا الفراش اللعين الذى يستضيف أشباحًا ولا يستطيع أن يستضيف رجالا حقيقيين، ستستقبل الموت على الكرسى الخيرزان الذى كانت دائمًا تجلس عليه تنتظر رجالها الغائبين، ستلقى نظرة من موقعها على حديقتها التى ستصبح بعد ذلك مقبرة، عندما يأتى الموت وتسقط لن تشم رائحتها العفنة، ستشم رائحة أزهار حديقتها، وضعت بجوارها الصندوق المذهب الذى يحوى رائحة رجالها وكثيرًا من عطر روحها، قالت بعدما تموت ستعطيهم رسائلهم، لن تستقبل رسائل أخرى ولن تنتظر أحدًا مرة أخرى عند الميناء، وضعت زجاجة ماء مثلج بجوارها وتناولت حبة مهدئة، قررت أن تتناول قرصًا قرصًا، قالت يجب أن يموت الإنسان ببطء، ربما الأفضل أن يموت فى تسعة أشهر، تناولت حبة أخرى، لن يعرف الناس أنها قد ماتت، ليس لها رجال

sa7eralkutub.com

ينشرون لها نعياً أو يحملون نعشها فى حزن، لن يدرك أحد أن خلف هذا السور العتيق جثة تتسلق روحها أعواد الياسمين وتحبو صوب جبلاية الصبار، لن يشعر أحد بأن ثمة بقايا امرأة هنا، حتى تلميذات مدرستها سيدقون الجرس وسيقرعون بوابتها ثم ينصرفون ولن يعودوا ثانية، سيقولون ربما فضلت أن تقضى بقية حياتها على رصيف الميناء، تناولت حبة رابعة، عندما ستسقط من على الكرسى الخيرزان ستترك مؤخرتها عليه حتى لا يشعر الكرسى بغيابها وقد تحملها طيلة حياتها، سيتدجرج باقى الجسد من على سلالم الدرابزين الخشبى حتى يصل إلى فناء الحديقة، ستنفرط حبات عنقود العنب الأحمر أسفل نهديها، وتتبعثر فى أرجاء الحديقة، لكنها خشت أن تنجب أرض الحديقة من بقاياها نساءً تشبهها، نساء تنتظر رجالها الغائبين، عنفت نفسها لأنها لم تتخلص من أكوام الحديد التى تركها مالك بيه جاثية ككائنات مشوهه على أرض الحديقة، تناولت خامسة، بدأت تشعر بصفاء، ذلك الصفاء الذى لا يأتى إلا مرة واحدة مع الموت فيجعلك تنظر خلفك لتكتشف أن من وراءك ليس بظلك ولا يشبهك تمامًا وأنك ربما لم توجد أو لم تأت بعد، تناولت حبتها السادسة فشعرت برغبة مسيطرة فى أن تتناول فنجانا من القهوة وفى نفس ذلك الفنجان الذى فتح بصيرتها لتدرك أن كان ناجى هنا.

تناولُ القهوة مفيد قبل الموت ؛ ربما لأنها تجعلنا نواجه الموت بيقظة كافية، أعدت فنجانها، دارت بتثاقل فى أنحاء المنزل، كأنها تودع أشياءها، تلك الأشياء التى تعيش معنا طيلة الوقت وترفض أن تموت معنا ؛ ربما كى نشعر بالوحدة فى الموت أيضًا، أو ربما لأن للموت أشياءه الخاصة، تناولت السابعة بعد أن عادت إلى كرسيها، شعرت

sa7eralkutub.com

بسحابة وغبش على عينيها، قالت الموت عندما يأتى لا يحب أن نراه، يأتى متسللًا، كأنه صاحبنا السخيف الذى نتوقع حضوره ثم يأتى من خلفنا ويضع كفيه على عيوننا ثم يسألنا بسذاجة: من أكون؟!.. تناولت حبتها الثامنة، سمعت دقات كدقات الجرس، للحظات لم تدرك إن كانت تلك الدقات بداخلها أم هى دقات جرس حقيقية، تأكدت أنه جرس بابها بنغمته المزعجة، تعجبت أن للموت هذه الطريقة المهذبة فى الحضور، كانت تعتقد أنه يقفز من على الأسوار ويكمن فى مكان خفى حتى يؤدى مهمته ثم يسرق الروح ويضعها فى حقيبة سوداء ويقفز عائدًا، لكنه يترك الجسد فى فراشه حتى لا يشعر الأهل بالفجيعة الكاملة، قالت ربما يأتى بعد الحبة التاسعة، وجدت رسالة تنفذ بسرعة وبطريقة مدهشة من تحت عتبة البوابة، ازدادت دهشتها ؛ لم تعتقد أبدًا أن الموت يمكنه أيضًا أن يرسل خطابات غرامية، بدأت تأخذ طريقها إلى النوم، النوم الممتع هو الذى يأتى قبل الموت ؛ لأنك لن تصحو منه ثانية، لن يجبرك أحد على الاستيقاظ قبل موعدك، تعجبت لأن الصيدلى ذكر لها أنها ستنام بمجرد حبة واحدة، بدأت رموشها تنسدل على عينيها كأبواب دكاكين ثقيلة، استرخى جسدها تمامًا على الكرسى الخيرزان، لكنها كانت قادرة أن تخرج الحبة العاشرة من عبوتها، لم تعد قادرة على أن تجد الزجاجة، أخذت تتحسسها وعندما وجدتها لم تستطع أن تحدد إن كان لا يزال بها ماء، سقطت الزجاجة من يدها المتراخية، وقفزت درجات السلم واستقرت فى فناء الحديقة، بدا جسدها نائمًا تماما لكنَ روحها كانت بنصف يقظة ؛ لأنها استطاعت أن تستنشق رائحة ما، رائحة تعرفها تماما وإن لم تستطع أن تحدد مصدرها، تسللت الرائحة فى البداية بهدوء كأنها تحبو إليها، أنفها كان

sa7eralkutub.com

نائمًا، سقطت أرنبته على وسادة ناعمة أعلى فمها، استبعدت أن يملك الموت زجاجة عطر بهذه الرائحة الساحرة، فجأة استعادت روحها بنصف يقظتها مقطوعة ناجى " عندما تنام الموسيقى " التى عزفها على كمنجته فى المخزن بينما كانت جالسة نفس هذه الجلسة على الكرسى الخيرزان، كأن الموسيقى هذه المرة تنبعث من داخلها، تعزفها بأوتار روحها، قالت هى موسيقى صالحة تماما لإنسان يموت وصالحة تماما لإنسان يحب، وصالحة تماما لإنسان ينام،سقطت على الأرض عارية، تركت مؤخرتها على الكرسى كما قررت، حينها توصلت إلى أنها رائحة ناجى، هل جاء ناجى؟ هل سيحملها ثانية إلى المستشفى؟ وهل ستضطر بعد ذلك أن تجلس على الكرسى الخيرزان لتنتحر؟ هل جاء من نافذة المطبخ كعادته؟ لم تستطع أن تحدد اتجاه الرائحة التى توغلت فى كل اتجاه، كأن نهرين يتدفقان فى حديقتها، نهر رائحة ناجى ونهر الموسيقى التى ينبعث صداها من داخلها، لا تعرف أين المنبع ولا أين المصب، لكنها نامت بعمق، ثم وكأنها تتناول رسالة من تحت عتبة بوابتها الحديدية، رسالة برائحة ناجى، فتحت مظروفها بلهفة لتخترقها الرائحة وتنعش خلاياها النائمة، ثم وكأنها تحاول أن تقف فتسقط، لكنها لملمت نفسها فى النهاية وجلست على كرسيها، لم تستطع أن تستجمع قواها أو تركيزها حتى تقرأ، عندما استطاعت، لم تستوعب شيئًا، أعادت النظر بعين زائغة، ثم وكأنها تقرأ وهى نائمة تماما بعمق:

" انتظرينى عند الغروب فى الميناء، حيث سأركض قريبًا صوب بهجتى الخاصة، سنرحل معًا على ظهر سفينة، وسنحتفل سويًا بالفالانتين، سأكون مستعدًا لذلك بثياب جديدة، لن تنتظرى طويلا هذه المرة على الرصيف، لأنى سأفعل مثلما أفعل كل مرة " .

sa7eralkutub.com

فى سباتها العميق استوعبت ملك ما فى الرسالة، قرأتها عدة مرات من أجل ذلك، حاولت أن تستيقظ لتكون مستعدة حين يأتى ناجى فى أى غروب!

قالت إنها ستضع نفسها تحت الماء البارد لتستيقظ، ستتعطر وترتدى فستان الدانتيلا الأبيض، ستفتح قفص طيور الحب وتترك لها حرية التصرف دون خجل،وستودع منزلها فى كل مرة تذهب للميناء، وستمنح أكوام الحديد والخردة لأقرب بائع روبابكيا، فى كل مرة ستأخذ فقط صندوق رسائل روحها معها، وفى كل مرة ستنتظر إلى ما بعد الغروب.

رغم سباتها العميق كانت متأكدة أنها ستستيقظ قبل موعد الغروب، قبل الغروب كانت منتشية بالموسيقى، تحاول أن ترفع رأسها فلا تستطيع، تحاول ثانية كلما انتهت المقطوعة الموسيقية وبدأت من جديد، كأن روحها تتعكز على يد الموسيقى لتنهض، فبدت روحها خفيفة تماما وهى تستعد لليقظة الكاملة .

* * * *

sa7eralkutub.com

القتلة يحتفلون بالفالنتين

"ما دمتم قد وضعتموني على حافة القتل فلتموتوا جميعا وتهبوني الحياة. ليكن القتل ما دمتم ترون أن القتل من أعظم المخترعات الإنسانية . إبليس نفسه لم يضبط يوما بحوزته سكينا متلطخا بالدم ولم يجد خبراء المعامل الجنائية شعيرات من فروة رأسه بين أظافر الضحايا. فلتكن محرقة إذن، نارها ليست بردا ولا سلاما عليكم بل حمماً تلفح وجوهكم وتطهركم تطهيرا. ليكن طوفانا يعلو الجميع. لا سفينة ولا نوح ولا من كل زوجين اثنين، وعندما تبتلعكم الأرض في قرارها المكين، تخرج الشمس من مخدعها وتلقي ستائرها على الليل المظلم، ليبدأ نهار الحر. تتشكل الأشياء من جديد. لعل الطبيعة تتلافى خطاياها السابقة هذه المرة".

محمد صفوت

سحر الكتب
sa7eralkutub.com

دار الحياة